رحلة مصطفى محمود

غرائب الكائنات

إعداد

إيهاب كمال

دار الروضة

للدراسات الإنسانية



دار الروضة

حائز على شهادات تقدير
من المعارض الدولية والعالمية
• عضو اتحاد الناشرين المصريين والعرب •
• عضو الاتحاد الإسلامي العالمي للدعوة والاعلام •

رقم الإيداع
٢٠١٧ / ١٧٣٥٢

الترقيم الدولى :
978-977-458-170-3

الناشر
دار الروضة
للنشر والتوزيع
2 درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
سوق الكتاب الجديد - الأزبكية تليفون : 25066884

المقدمة

عندما كنت طفلًا صغيرًا، كنت أتشوق لذلك الناي الحزين الذي يعلن بدأ برنامج "العلم والإيمان"، لأنني كنت أعلم أن الدكتور مصطفى محمود سيأخذني في رحلة جديدة معه لأكتشف العالم من راحة منزلي.

إلى أين يا ترى ستكون الرحلة هذه المرة؟ هل إلى غابات أفريقيا، حيث أتعلم عن القبائل البدائية، وطرق معيشتها؟ أم إلى الفضاء، وكواكبه المتناثرة؟ ربما حديث عن المريخ، أو الصعود على القمر؟ ولربما كان بعيدًا عن هذا كله، فكان حديثًا حول مسألة الموت، وماذا بعده؟ حقًا لا أبالي، فالشيء الوحيد الذي كنت متأكدًا منه، أنه شيء سيذهلني، وسيشعل عقلي فضولًا.

كبرت، وودعت رعونة المراهقة. ولكنني أيضًا استقبلت أسئلة ثقيلة: لماذا أنا هنا؟ لماذا نحن هنا؟ كيف وجدت؟، أبي وأمي والمدرسة والمسجد يقولون لي أن الله أوجدني، لأعبده. ولكن المشكلة في هذه الأسئلة أنه لا يصح فيها تلقين الإجابة. لا بد على كل أمرؤ أن يجد جوابها بنفسه.

كنت أفتش يومًا في مكتبة أبي القديمة، فوجدت كتابًا يدعى "أينشتاين والنسبية"، كان اسم المؤلف مألوفًا، ولكنني تفاجأت أن مقدم برنامج العلم والإيمان يكتب كتبًا أيضًا! فبدأت أقرأ، وأقرأ، مستمتعًا بنفس الأسلوب السلس المسلي الذي اعتدته في برنامج العلم والإيمان، ولحسن حظي، لم يكن كتاب "أينشتاين والنسبية" الكتاب الوحيد في مكتبة أبي للدكتور مصطفى محمود، فأنهلت على كل ما وصلت إليه يداي قراءةً وتدبرًا، ولم أجد إرهاقًا أو أي شيء من هذا القبيل، لأن كتب الدكتور تسلي أكثر من قراءة الروايات! ولقد كانت تلك الكتب آخر ما أقرأ قبل نومي، ولربما كان هذا خطأ فادحًا، لأنك لن تستقبل النوم بعد أن يشعل الدكتور رأسك أسئلةً.

اليوم أنا في بداية عقدي الثالث، ومجموع حصيلتي من كتبه، قرابة العشرين كتابًا،

ولكن ذلك مازال بعيدًا عن شمول مؤلفاته كلها، فمؤلفاته تجاوزت الثمانين كتابًا. ومع ذلك أستطيع أن أجزم إليوم، أن العشرين كتابًا التي قرأتها، كونتني. فأزال من صدري كل الشكوك كتاب "حوار مع صديقي الملحد"، وأنار دربي في رحلة البحث عن الحقيقية، رحلة الدكتور الشخصية "رحلتي من الشك إلى الإيمان".

وفتح على فكري مدارك واسعة كتابه "علم نفس قرآني جديد"، حيث قدم نظرية علم نفس جديدة مبنية على الوحي القرآني، والتي هي بالنسبة لي نظرية أشمل وأدق من علم النفس الحالى، ولا أنسى كتاب "لغز الحياة"، والذي أمسك فيه الدكتور بيدي في جولة في نظريات الحياة والتطور والطبيعة. وغيرها كتب أخرى، لا يسعني ذكرها هنا.

لم يترك الدكتور مجالًا إلا كتب فيه، فله مؤلفات في الفلسفة، والعلوم، والدين، والسياسة، والمسرح والقصة والرواية! ومع اتساع دائرة مؤلفاته، وعمق مواضيعها، أستطاع الدكتور أن يقدمها كلها بأسلوب سهل شيق يناسب الجميع.

كم مرة أذكر أنني تلفظت بالشهادة عندما أنهيت أحد كتبه، لأنني وقتها شعرت أنني أسلمت الآن! فقبل كل هذا لم أكن سوى وارث للإسلام. والاقتناع بالإسلام شيء آخر تمامًا.

الاقتناع بالإسلام يعني رحلة من التفكير والبحث بأسلوب منطقي بعيد عن كل الأهواء والافتراضات. وهذا دون يد تساعدك أو ترشدك أمر شبه مستحيل. والحمد لله أن الدكتور دون رحلته وشكوكه وأسئلته، فبذلك اختصر على الناس الكثير. وكان يدًا ترشدك إذا ما ضللت الطريق.

"أنا حقابل ربنا بشوية كلام؟!". هكذا قال عندما كان يتحدث في أحد اللقاءات التلفزيونية، فلقد وصف قرابة التسعين كتابًا بـ "شوية كلام"! ولهذا لم يتوقف إنتاج الدكتور على هذه الأمور، فقام بإنشاء مسجد في القاهرة، وأسماه باسم أبيه: "محمود". وألحق بالمسجد ثلاث مراكز طبية، وأربع مراصد فلكية، ومتحفًا للجيولوجيا!

قبل سبع سنوات، ذهبت روحه الطيبة إلى لقاء ربها. ولكنها لم ترضى أن تترك هـذه الدنيا قبل أن تترك شيئًا عظيمًا من نورها. الدكتور مصطفى محمود أدرك أهمية الإعـلام في نشر الوعي الذي يؤدي بدوره إلى نهضة الشعوب، فقام باستخدام كل الوسائل التي وصل إليها، لنشر رسالته.

أتأمل كثيرًا في الفضل الكبير للدكتور علـيّ مـع أنني لم ألقـه يومًـا، وأتخيـل عـدد الأشخاص غيري الذين تأثروا به. إنه لأمر جميل حقًا أن تترك هذه الدنيا دون أن تغادرها! بأن تضع بصمة تساهم، ولو قليلًا، في تغيير هذا العالم.

وفي هذه السلسلة سنحاول استلهام أفكار وكلمات هذا الكاتـب والمفكـر الكبير ونحاول أيضاً أن نستخرج أفكار ورؤى رائعة من بين سـطوره ولقاءاتـه في برنامجه الرائع العلم والإيمان.

***

حيرة

وسألت نفسي

سألت نفسي عن أسعد لحظة عشتها..؟؟

ومر بخاطري شريط طويل من المشاهد.. لحظة رأيت أول قصة تنشر لي، ولحظة تخرجت من كلية الطب، ولحظة حصلت على جائزة الدولة في الأدب.. ونشوة الحب الأول والسفر الأول.. والخروج إلى العالم الكبير متجولاً بين ربوع غابات إفريقيا العذراء، وطائراً إلى ألمانيا وإيطاليا والنمسا وسويسرا وإنجلترا وفرنسا وأمريكا.. ولحظة قبضت أول ألف جنيه.. ولحظة وضعت أول لبنة في المركز الإسلامي بالدقي.. استعرضت كل هذه المشاهد وقلت في سري.. لا .. ليست هذه..

بل هي لحظة أخرى ذات مساء من عشرين عاماً اختلط فيها الفرح بالدمع بالشكر بالبهجة بالحبور حينما سجدت لله فشعرت أن كل شيء في بدني يسجد.. قلبي يسجد.. عظامي تسجد.. أحشائي تسجد.. عقلي يسجد.. ضميري يسجد.. روحي تسجد..

حينما سكت داخلي القلق وكف الاحتجاج ورأيت الحكمة في العذاب فارتضيته، ورأيت كل فعل الله خير، وكل تصريفه عدل، وكل قضائه رحمة، وكل بلائه حب.. لحظتها أحسست وأنا أسجد أني أعود إلى وطني الحقيقي الذي جئت منه وأدركت هويتي وانتسابي وعرفت من أنا.. وأنه لا أنا.. بل هو.. ولا غيره..

انتهى الكبر وتبخر العناد وسكن التمرد وانجابت غشاوات الظلمة وكأنما كنت اختنق تحت الماء ثم أخرجت رأسي فجأة من اللجة لأرى النور وأشاهد الدنيا وآخذ شهيقاً عميقاً وأتنفس بحرية وانطلاق.. وأي حرية.. وأي انطلاق.. يا إلهي.. لكأنما كنت مبعداً منفياً مطروداً أو سجيناً مكبلاً معتقلاً في الأصفاد ثم فك سجني.. وكأنما كنت أدور كالدابة على عينيها حجاب ثم رفع الحجاب.

نعم.. لحظتها فقط تحررت.

نعم.. تلك كانت الحرية الحقة.. حينما بلغت غاية العبودية لله وفككت عن يدي القيود التي تقيدني بالدنيا وآلهتها المزيفة.. المال والمجد والشهرة والجاه والسلطة واللذة

والغلبة والقوة..

وشعرت أني لم أعد محتاجاً لأحد ولا لشيء لأني أصبحت في كنف ملك الملوك الذي يملك كل شيء.

كنت كفرخ الطير الذي عاد إلى حضن أمه..

كانت لحظة ولكن بطول الأبد.. نعم تأبدت في الشعور وفي الوجدان وألقت بظلها على ما بقي من عمر ولكنها لم تتكرر، فما أكثر ما سجدت بعد ذلك دون أن أبلغ هذا التجرد والخلوص وما أكثر ما حاولت دون جدوى.. فما تأتي تلك اللحظات بجهد العبد بل بفضل الرب.. وإنما هو الذي يتقرب إلينا وهو الذي يتحبب إلينا.. وما نتعرف عليه إلا به.. وما نعبده لحظة تمام العبادة إلا بمعونته.. وما ندخل عليه إلا بإذنه.. فهو العزيز المنيع الجناب الذي لا يدخل إليه بالدعاوى والأقاويل.

ولقد عرفت آنذاك أن تلك هي السعادة الحقة وتلك هي جنة الأرض التي لا يساويها أي كسب مادي أو معنوي.

وما كل ساجد يقترب إلا إذا خلع النعلين فألقى بالدنيا وراءه ثم ألقى بنفسه خلفها ودخل مسلم القلب عريان المشاعر خاشع الفؤاد ساجد الأعضاء.. حينئذ يكون القرب.. وتكون السجدة.

ولكم أتمنى أن أعاود تلك السجدة.

أو تعاودني تلك السجدة.. ويتفضل على الله بالقرب ويأذن لي بالعبادة حق العبادة.. وأقول في نفسي أحياناً.. لعلى لم أعد أخلع النعلين كما يجب وكما يليق بجلال المقام الأسمى.. ولعل الدنيا عادت فأخذتني في دوامتها وعاد الحجاب فانسدل على العينين وعادت البشرية فناءت بثقلها وكثافتها على النفس الكليلة ولكني لا أكف عن الأمل وأسأل الله أن يشفع الأمل بالعمل سبحانه وسعت رحمته كل شيء.

الحب في الكعبة

وسألت نفسي وأنا أطوف بالكعبة.

ما بال المسلمين يطوفون الآن في خشوع وتبتل فإذا خرجوا تفرقوا وانقسموا

وأصبح كل منهم يطوف حول نفسه أو حول اسمه أو حول شيطانه.

أهي أدوار يمثلونها لبضع دقائق ثم يذهب كل منهم بعد ذلك إلى حال سبيله.

أيكون طوافهم طوافاً ونسكاً دينياً حقاً أم تمثيلاً.

هل أراد الله بالطواف أن يكون مجرد حركة معزولة عن السلوك والحياة أم أراد به أن يكون شعيرة دينية.. هي تكثيف وتلخيص للحياة كلها.

بل أراد الله أن تكون حياتنا كلها طوافاً حول مشيئته في كل صغيرة وكبيرة.

ولو أن العرب طافوا في سياستهم حول نقطة واحدة كما يطوفون الآن، ولو أنهم اجتمعوا أبيضهم وأحمرهم وأسودهم في رحاب رأي واحد كما يجتمعون في الكعبة لما ذلوا ولما هانوا ولما أصبحوا عالماً ثالثاً أو عالماً رابعاً كما نراهم الآن.

وسألت نفسي في دهشة.

وكيف بالطوافين حول الكعبة يحارب بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً.. وعلى أي معنى إذا كانوا يطوفون.. وعلى أي شيء كانوا يجتمعون.

هل صدقوا حينما طافوا.

وهل صدقوا حينما اجتمعوا.

وهل صدقوا حينما قالوا.. الله اكبر.

بل كانت الدنيا عند كل منهم أكبر.

وكان كل منهم طوافاً حول نفسه مسبحاً برأيه مهللاً لأفكاره صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام حينما رد على الأعرابي الذي قال له.. أصلي الفروض الخمسة ولا أزيد.. فقال أفلح إن صدق.

فالقوا مازال سارياً على العرب جميعاً إلى إليوم.

أفلحوا إن صدقوا.

ويبدو أنهم إلى الآن.. ما صدقوا.

الحب في السينما

أما الحب في السينما.. فيبدو أنه أصبح الآن بضاعة مغفلين.

ما من قصة حب في السينما إلا ونرى فيها طرفاً يستغفل الآخر أو نرى كلا منهما يستغفل نفسه ويغلف رغباته بالأشعار والكلام الحلو ويغمض عينيه على الكلام العسل سعياً وراء ليلة لذيذة.. والمخرج والمنتج يستغفلان الكل.. وكله مكسب.. ولا شيء حقيقي.. مثل إعلانات التلفزيون تحاول دائماً أن تغويك وتستغفلك لتشترى أشياء لست في حاجة إليها ولتجرى وراء بضاعة عندك ما هو أحسن منها في بيتك.

والديكور والألوان والأزياء والموسيقى مؤثرات مثل الأفيون يحاول المخرج أن يخرج بها شهيتك ويخدر حواسك ويغسل مخك لترى ما يريد هو أن تراه ولتحب ما يردي هو أن تحبه.

والممثلون يختالون على الشاشة ويقولون كلاماً مصنوعاً ويتخذون أوضاعاً مفتعلة والبطلة تكاد تقع على الأرض من فرط الرقة.

لا ترى أحداً يتكلم على طبيعته أو يمشى على طبيعته.

وكل قصص الحب تباديل وتوافيق قصة واحدة مملة مكررة.. أحبها وتزوجت رجلاً آخر أو تزوجها وأحبت رجلا آخر.. ابنه ليس ابنه.. خيانة زوجية.. غيرة.. وجريمة قتل أو ضياع في البارات بين الخمر والراقصات ومحاولة نسيان.. ودائماً محاولات النسيان لا تكون إلا في البارات وبين أحضان الراقصات.. لا يفوت المنتج أن يمتعنا بتابلوه راقص في الكباريه.. ثم أغنية عاطفية في القناطر.. ثم يفاجئنا بلطجي الكباريه عشيق الراقصة.. وماتش ضرب.. وحادث سيارة ويفقد البطل الذاكرة إلى آخر الموال.. وفي موسم المخدرات لا مانع من فيلم مخدرات.

صناعة استغفال وفن استغفال.

فن زخارف.. زخارف أقوال وزخارف أفعال.. ونقوش لكن على الماء ثم لا يبقي شيء.

أما الحب الحقيقي فشيء آخر تماماً لا نجده في أي فيلم.

الحب الحقيقي هو المودة والرحمة، وهو عطاء الفطرة الذي لا تكلف فيه ولا صنعة ولا احتراف، وهو صفة النفوس الخيرة وخلة الأبرار الأخيار من الرجال والنساء، وهو شيء آخر غير الذي يعرض علينا في الأفلام، وهو لا يوجد إلا في البيوت الطيبة التي ليس لها صوت ولا تسمع لها سيرة ولا تحكى عنها قصص ولا أخبار.

لا شيء مما نرى في السينما يمكن أن يبني بيوتاً أو يصنع نفوساً سوية وإنما أغلبها يهدم ويضيع ويقدم نماذج مريضة يظنها الأولاد قدوة فنراهم في البيوت يقلدون النجوم والنجمات ويتهتكون في المشية. ويغنجون في النطق ويظنون أنهم أصبحوا عباقرة.

ولا أجد سبباً واحداً معقولاً لإعادة أمثال هذه الأفلام في التلفزيون إلا أن تكون خطة إعلامية مقصودة لتغييب الوعي.

ومن حق المواطن أن يرى في التلفزيون ما يفيده وأن تجنبه أجهزة الرقابة ما يضره وما يضيعه.

وإذا كان إهمال التلفزيون لهذه الأفلام سوف يؤدي بالسينما إلى الإفلاس فلتفلس.. فلا غرابة أبداً في إفلاس صناعة رديئة.. ولا ضرر في ذلك بل فائدة.

ولا أعفى الأفلام الأجنبية الشرقي منها والغربي من هذا النقد، وربما كانت أخطر لأنها أشطر في الحرفة وأمهر في الصنعة وأفحش في المضمون.. والقليل منها هو الذي يمكن أن يستثنى مثل الأفلام التاريخية والتسجيلية والعلمية فمعظمها جيد ومفيد.

ولا أدرى لماذا لا تقتحم السينما العربية هذه الميادين.. وقد فعلت ذلك فيما مضى وقدمت الناصر صلاح الدين وفجر الإسلام والرسالة.

هكذا كانوا يفعلون في الماضي قبل أن يدخل تجار وكالة البلح ميدان الإنتاج السينمائي وقبل أن يصبح شعار الفيلم الناجح هو الضرب.. للركب والضحك بالهبل.. واللي ما يشترى يتفرج.. أسأل نفسك مرتين قبل أن تشترى تذكرة سينما وتأكد أنك لن تشتريها أبداً.

***

على من يرفعون عصا الشريعة؟

الشريعة لم تنزل لمجلس الوزراء، ولكنها نزلت إلى كل مسلم ليطبقها في نفسه أولاً وفي سلوكه وفي بيته وفي جيرانه وفي عشيرته فكل مسلم راع وكل مسلم له دولته الخاصة وله رعيته التي عليه أن يطبق فيها أمر الله أولاً قبل أن يتوجه بالأمر إلى غيره..

والله يخاطب عيسى في حديث قدسي قائلاً:

"يا عيسى عظ نفسك فإذا اتعظت فعظ الآخرين وإلا فاستح مني".

فالشريعة لم تنزل لنسير بها في مظاهرة هاتفة إلى سراي عابدين دون أن يفكر هذا الذي يهتف ويتظاهر ويحمل اللافتات ويقذف بالطوب ويحرق الأتوبيسات وهو غالباً مخدوع أو عميل لدول كبرى ودول صغرى وأحزاب تستعمل يده وتستعمل حنجرية وتستعمل الدين لتثير الانقلابات والفتن.. هذا الذي يرفع عصا الشريعة على الحكومة دون أن يفكر في أن يرفعها على نفسه أولا لن يصل إلى خير.. ولن يحقق نفعاً.. وإذا استطاع أن يحمل الحاكم على تطبيق الشريعة عنوة دون تجاوب من القاعدة، ودون همه خاصة من كل فرد على تطبيق هذه الشريعة في نفسه فلن يصل إلى شيء ولن يكون التغيير إلا مجرد تغيير ظاهري ووضع لزيد من الملصقات مثلما فعل النميري في السودان فقطع يد سارق الجنيهات العشرة وأعفى سارق المليون.

والخوميني يقول إنه يطبق الشريعة في إيران والقذافي يقول إنه يطبق الشريعة في ليبيا وضياء الحق يقول إنه يطبق الشريعة في باكستان فأي تطبيق من هذه التطبيقات يريده المتظاهرون.

وفي السعودية تقام الحدود بالفعل فتقطع يد اللصوص ويرجم الزناة ومع ذلك فقد طلع المهدي وعصابته على الكعبة بالمدافع الرشاشة بدعوى تطبيق الشريعة.

إنها إذن ليست حكاية الشريعة.

وهؤلاء الناس لا يريدون شريعة بل يريدون أنفسهم حكاماً.. إنها شهوة حكم

ومطلب سلطة.. وما اللافتات المرفوعة إلا لافتات تمويه وما الهتافات إلا هتافات تعميه.. والشريعة بريئة من أهواء هذه الطائفة التي خططت لتعيد فتنة الخوارج فأرادت أن تخرج علينا رافعة المصاحف على أسنة الرماح هاتفة على الحاكم أن يطبق حكم الله..

وكما قال الزميل خالد محمد خالد لا نجد رداً نرد به عليها أبلغ من رد على بن أبي طالب.. إنها قوله حق أريد بها باطل..

وقد بدأت الفتنة الكبرى من ذلك التاريخ القديم.

واليوم نرى الزمن قد استدار دورته ونرى الإسلام يدفع به إلى فتنة أكبر وأشمل فنرى المسلم يقتل المسلم في كل مكان وحملة لواء لا إله إلا الله يذبح بعضهم بعضاً في لبنان والعراق وإيران وسوريا وليبيا وكل بلد عربي. وهم هنا يريدون أن يقتل بعضهم بعضاً تحت راية الشريعة وباسمها.

وقديماً لم يقطع عمر بن الخطاب يداً في مجاعة.. ولم يقطع النبي ﷺ يداً في حرب..

ونحن اليوم في حرب أو نكاد.. وفي فتنة هوجاء أسوأ من كل الحروب.. وما أسهل استئجار أربعة شهود زور لقطع يد برئ.

وقد أوصانا الرسول عليه الصلاة والسلام أن ندرأ الحدود بالشبهات.. وهل ترون عصر شبهات أكثر من عصرنا الذي يموج بالفتن كقطع الليل المظلم..

تمهلوا يا قوم ولا تعجلوا فتدفع بكم العجلة إلى الظلم.. فالشريعة ليست قضية انفعال ولا مسألة هوى.. بل هي مطلب حقيقي وعزيز ويجب أن تصدق فيه النيات، ويبدأ فيه الطالبون بأنفسهم وتتجاوب فيه القاعدة مع القمة ويأتي فيه الإصلاح على مكث وعلى ترو وعلى تدرج، فنحن في الظرف الذي يسميه الفقهاء.. شيوع البلوى.. تماماً كما كان انتشار الخمر في الجاهلية بلوى شائعة.. ولذلك نزلت آيات تحريمها على مكث وتدرج واستغرقت مراحل تحريمها أكثر من اثنتي عشرة سنة.. وكان هذا درساً من الله يعلمنا فيه مرونة التشريع الإلهي ومناسبته لكل الظروف.

ثم هناك ولاشك قضايا فقهية وقانونية في حاجة إلى إعادة تقنين وإعادة نظر مثل

قضايا الرشوة والاختلاس والعمولات والسرقة من مال عام.. ومثل تلك السرقات لا يدخلها المشرع الإسلامي تحت بند قطع إليد.. لأنه يعتبر أن المال العام فيه شبهة ظلم فلا يجيز قطع إليد في سرقته.. وبذلك نراه يقطع إليد في عشرة جنيهات ويعفى مختلس المليون الذي سرقها من قطاع عام.. وهذه مسألة تحتاج إلى إعادة نظر لأن أخطر سرقات إليوم هي سرقات القطاع العام وإعفاء مثل تلك السرقات من الحد سوف يشجع عليها.. وقطع يد صغار اللصوص وإعفاء كبارهم سوف يكون فتنة.

إن الدراسة مطلوبة وحسن الفهم عن الله شرط لتطبيق شريعته.

وبرغم الأمر الصريح بالقراءة وهو الأمر الذي له أولوية مطلقة في الإسلام فنحن أمة لا تقرأ ولا تعقل بل نفكر في المظاهرات والهتافات والمسيرات لنطبق الشريعة.. ولكن ما هي الشريعة.. إنها هذا كله.. إنها العلم والعمل والعدل والرحمة ومكارم الأخلاق.. وهي ليست مجرد حدود.. وما الحدود إلا سياج الأمن والحماية الذي تضربه الشريعة حول خيمة المسلمين.. ولكن الشريعة ككل أكبر من موضوع الحدود فهي قانون الرحمة العام وقانون الحب ودستور النماء والتطور للمجتمع الإسلامي.

وما أقول هذا الكلام إلا حباً في الشريعة وتمسكاً بها وخوفاً عليها من سوء النيات وسوء التفسير وسوء الفهم وسوء التطبيق وحرصاً عليها من متاجرة المتجرين المتآمرين.

والإسلام الحق لا مدخل فيه للإكراه والعنف والمظاهرات والمزايدات السياسية بين أحزاب اليمين وأحزاب اليسار ولا مكان فيه للهوى والغرض والمتاجرة بالعقول.

ولا يصح في الإسلام إلا الصحيح..

ولا يخلص إلا ما كان خالصاً لوجهه تعالى.

فتمهلوا يا قوم.. ولا تسارعوا باتهام بعضهم بعضاً.. فكلنا يسير على الشوك وكلنا يمشى على الألغام.. وكلنا مستدرجون من حيث لا ندرى بمكر الماكرين من الداخل وتآمر المتآمرين من الخارج.. ولا يسلم موطئ قدم من حفرة ولا تسلم عتبة من فخ منصوب.. والأعداء حولنا كبارهم وصغارهم لا يريدون لنا سلاماً وهم يخططون

لخرابنا.. ويا حبذا لو جاء خرابنا بأيدينا لنوفر عليهم مؤنة القتال.

فلنتمهل.. ولنفكر مرتين.

وليرفع كل منا عصا الشريعة على نفسه أولا وليطبقها في سلوكه وفي بيته وليغير من نفسه.

فإذا غيرنا من أنفسنا فسوف يغير الله ما بنا.

فذلك وعد الله.. ولن يخلف الله وعده.

ولندع تقنين الشريعة على مستوى الحكم يأخذ مجراه في هدوء بين رجال قانون متخصصين ورجال فقه متعمقين وأهل نظر واجتهاد متنورين يأخذون لنا بالأحسن من كل شيء.

والله يلفتنا بذلك إلى تفاوت مراتب الأمر.. فالله أمرنا بالعدل ولكنه أمرنا أيضاً بالرحمة.. والرحمة فوق العدل.. ومن يأخذ بالرحمة يأخذ بالأحسن.

ألم يقل نبينا محمد عليه السلام للمسلمين: "تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني منها فقد وجب".

أي حاولوا تصفية الخلافات التي تقتضى الحدود فيما بينكم فيعفو الواحد عن الآخر أو يأخذ دية ولا تبلغوني فإن ما بلغني منها فقد وجب تنفيذه.. يقول هذا كراهة لتنفيذ الحدود وإيثاراً للعفو والتراحم بين المتخاصمين.

وهذا هو الإسلام.. دين السماحة والتراحم والمحبة والمغفرة.. الدين الحنيف الذي لا يلجأ إلى العنف إلا حينما يستنفد كل فرص الإصلاح الدين الذي جاء رحمة للعالمين.

فلنحاول أن نكون مسلمين حقاً.. رحماء حقاً.. إنسانيين حقاً.. فتلك هي بطاقات المؤمن الرباني الوارث الذي يسير على القدم المحمدية.

أما العنف والإرهاب والانقلاب والإضراب والتظاهر وخطف الطائرات وتلغيم السيارات فتلك بضاعة الساسة الماكرين وأهل الأغراض والأهواء والمهيجين والمجرمين

والمتاجرين بالعقول.. ولسنا منهم.. بل ضدهم فهم لن يفتحوا لنا باباً إلى نجاة بل سوف يفتحون لنا جهنم على مصاريعها.

من هو الأصولي..؟

كلمة نسمعها كثيراً هذه الأيام هي الأصوليون.. وطائفة الأصوليين هم الملتزمون بحرفية النصوص السائرون على قدم النبي عليه الصلاة والسلام حذو النعل بالنعل لا يزيدون على ما يقوله حرفاً ولا ينقصون حرفاً يقلدونه في كل فعل.. يحاكونه في ملبسه وفي مأكله وفي سيره وركوبه وفي صحوه ونومه وفي حياته وسعيه لا يجدون في شيء حتى ما يقتضى التجديد ويرفضون التطوير والتحديث ويحاربون المفاهيم العصرية بكل أشكالها ومذهبهم أنه إذا تغير القالب تغير معه القلب وأن الإسلام شكل ومضمون ولا يصح أن يتطور شكلاً حتى إذا كان هذا التطور الشكلي في خدمة المضمون ومثلهم الأعلى هو الجمود على القديم وهم يرون أنهم المسلمون بحق وأن سواهم ناقص في إسلامه وهم أبدا في حرب مع أي جديد وحجتهم أمام كل مشكلة هي..

أهذا الجديد فعله رسول الله عليه الصلاة والسلام؟

فإن لم يكن فعله ولا قال به رفضوه ولو كان حسنا وحاربوه ولو كان أكثر تناسباً مع العصر ونبذوه ولو حبذه العقل.

وهم أهل تشدد على أنفسهم وعلى غيرهم..

ولنا مع هؤلاء المسلمين الأفاضل وقفة هادئة.. فالإسلام نفسه ليس دين جمود بل دين حركة وليس دين شكل بل دين فعل.

ولم يقل مفسر واحد أن التأهب للأعداء يجب أن يتوقف عند رباط الخيل وأننا يجب أن نلزم النص والحرف..ولم يقل واحد بأن هذا حدود المفهوم القرآني.

وقد اختلف العصر وتحول سلام الفرسان إلى سلاح مدرعات ثم استجدت الصواريخ. ثم أشعة الليزر.. ثم الرؤوس النووية.. ولا نهاية للتطور.. فكيف بالمسلم يقف عند الحرف ولا يتجاوز ظاهر الكلمات ويتصور أنها أصولية في الفهم أن يحارب

عدوه على فرس.

وقد ركب النبي عليه الصلاة والسلام البغلة.. فلماذا لا يلزم الأصوليون ركوب البغال في أسفارهم..؟ ولماذا نرى شيوخهم يركبون المرسيدس ويطيرون في الكونكورد ونرى شبابهم يحملون مدافع الكلاشنكوف (صناعة روسية)؟

فلماذا تناقضوا مع أنفسهم ومع الأصولية التي يدعون إليها في هذا؟ ولماذا لم يتمنطقوا بالسيوف ويحملوا كنانة السهام؟

ولماذا لا يقضون الحاجة في الخلاء بدلاً من المرحاض كما كان يفعل المسلمون الأوائل؟

لماذا أخذوا عن النبي اللحية والسواك وقصروا الجلباب ورفضوا الباقي؟

إذا كان العصر والمصلحة واللياقة والمناسبة اقتضت ذلك فلماذا ينكرون علينا ما أباحوا لأنفسهم..

وهل نقول نحن أنصار التحديث والتطور أكثر من هذا .. إن العصر والمصلحة واللياقة والمناسبة ما يستحسنه العقل هو روح الإسلام ومضمونه وأن الشكل يجب أن يتطور متناسباً مع مقتضيات العصر وأن هذا من كمال الإسلام وليس من نقصه.

ولماذا يقفون عند الشورى ويحاربون الديمقراطية..؟ مع أنه لا قيام للشورى في حياتنا العصرية الجديدة بدون معارضة وأحزاب وحرية صحافة.. فهذه الأجهزة هي الشكل الجديد الذي يمكن للشورى ويجعل لها أثرا وفعالية.. ولماذا يرفضون الاجتهاد مع أن الاجتهاد هو أسلوب العقل الوحيد لمواجهة التحديات وفهم المتغيرات.. والقرآن يأمر بالتدبر والتعقل والتفهم في كل آية.. والله يقول للكافرين.. ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ (البقرة:١١١). فالدين عندنا عقل واقتناع ومنطق وليس مجرد عاطفة واستسلام أعمى.

إن المجتمع الإنساني إليوم أشبه بكائن تعملق وتضخم بشكل يقتضى منه أن ينسلخ عن اهابه ويغير جلده.

والله يضرب لنا المثال في الزواحف والحشرات واليرقات التي تنمو وتتضخم وتمر

بعدة انسلاخات تنضو في كل مرة جلدها لتلبس جلداً جديداً أوسع وأكثر ملاءمة لمقاسها الجديد..

وبرغم أن الجلد يتغير إلا أنها تظل هي هي نفس الحشرة.. إن الشكل يتطور دون أن يضيع المضمون.. بل إن المضمون يتأكد أكثر وأكثر في إهابه الجديد.

وهذا هو نفس الشيء في الإسلام..

إن الإسلام لن يضيع الاجتهاد والتحديث ولكن سيتأكد أكثر.

وأكثر وجوهره سوف يلمع أكثر وأكثر في الأشكال الاجتماعية الجديدة المتطورة.

والعكس صحيح فإن الجمود هو الذي سيضيع الجوهر الإسلامي النفيس، وهو الذي سوف يسجن الحيوية الإسلامية في زنزانة التعصب والأفق الضيق.

إن المسلمين الأوائل قطعوا يد السارق بالنص القرآني الصريح.

والفقهاء قالوا إن الحد لا ينطبق فقهياً على السارق من مال عام كما لا ينطبق على الرشاوي والعمولات والاختلاسات ولا على تزييف النقود وأنه لا ينطبق إلا على السرقة من مال خاص بحجة أن كل هذه متغيرات استجدت في مجتمعاتنا المصرية وجاءت مع القطاع العام والتأميم والنظم الاشتراكية ولا توجد عنها نصوص.

ولم يحاول أحد أن يجتهد مع أن هذه المتغيرات جاءت معها بسرقات هائلة بالملايين.. سرقات أخطر ألف مرة من نشل محفظة أو كسر خزينة.. لأنها حولت الاقتصاد كله إلى غربال من الخروق وجوعت الشعوب وحرمت الملايين.

ثم جاءت المخدرات.. الهروين والكوكايين والماكستون فورت وعقاقير الهلوسة.. فهوت كالمطرقة على عقول الشباب فأتلفتها وأهلكتها.

وتلكأ الاجتهاد..

وتردد المشرع.

وتباطأ الفقهاء واختلفوا..

وكثرت حوادث الاغتصاب والعنف والاعتداء على الفتيات.

وفي قضية الخلافة والحكم والملكية والجمهورية والاشتراكية والرأسمالية استعرت الخلافات أكثر وأكثر وتاه المسلمون في بحر غريق من الجدل وخرجت كل فرقة على الأخرى بالمدافع الرشاشة.. وادعى كل واحد أنه أصولي.

ولا حجة عند الأصولي، ولا نص يكفي لأن يحمل مدفعه الرشاش ليقتل من يخالفه، وإنما هو ضيق الأفق وضيق الصدر وهوى النفس وغرور الرأي الذي يخيل لصاحبه أنه كل شيء.

وإنما نحن أمام وضع يحتاج إلى فكر جديد.

وإذا كانت هذه الخلافات تدل على شيء فإنما تدل على حاجتنا إلى فكر جديد وإلى اجتهاد وإلى أن تكون عندنا فلسفة إسلامية وفكر إسلامي نشط.. وسماحة خلق.. وتواضع نفس.. وألا تدعي فرقة أنها أصولية وأنها الوحيدة صاحبة الإسلام الكامل وصاحبة القول الفصل.. وإنما يستمع كل فريق إلى الآخر في رحابة صدر دون أن يطلق الرصاص.. ودون أن يطلق الاتهامات.. ودون أن يكفر الرأي المخالف.

وهذه السماحة.. هي الإسلام عينه وليس ما يقوله الأصوليون ولا ما يدعيه المتعصبون ولا ما تزعمه كافة الفرق التي تدعى كل منها أنها الفرقة الناجية.

إن الصورة الشائعة عن المسلم الأصولي بأنه إنسان رافض متشدد عابس متهجم عنيف دموي هي صورة كاذبة.. فما هكذا كان المسلمون الأوائل وما هكذا كان محمد عليه الصلاة والسلام.. وإنما كان مثالاً للحلم والصبر وسعة الصدر والتواضع وحسن الاستماع إلى الخصم والجدل بالتي هي أحسن والعفو عن المسيء.

ألم يدخل مكة غازياً منتصراً على أعداء الأمس الملطخى الأيدي بدماء المسلمين ليقول في سماحة ومغفرة: اذهبوا فأنتم الطلقاء..

فأين هذا من أصولية الخوميني الذي دخل طهران منتصراً ليعلق خصومة على أعواد المشانق، ويقول بالتصفية الدموية الكاملة لحكم الشاه ولمجاهدي خلق ولكل من

يفتح فمه برأي مخالف..

لقد أخذ صاحبنا الإيراني عن النبي لحيته وجلبابه ولم يأخذ عنه عدله وحلمه ومغفرته ومكارم أخلاقه.

وهذه أصوليتهم.

وهذه هي السنة المطهرة في مفهومهم الأصولي.

ولكن النبي عليه الصلاة والسلام ترك لنا تاريخاً يشهد على سلوكيته المثلي ويفصل سنته الكاملة ويعرفنا بالأصولية الحقة لعشاق الأصول ممن يأتون بعده.

وليست الأصولية دعوى بل سلوك.. وليست جدلاً بل عملاً.

وليست شعاراً بل فقهاً محكماً وليست مسألة خلافية بل نهجاً ثابتاً.. ويسهل على كل صاحب دعوى أن يتاجر وأن يزايد في أي موضوع إسلامي ولكن يستحيل عليه أن يتاجر في محمد عليه الصلاة والسام ولا أن يزايد عليه ولا أن يساوم في سنته ومحمد عليه الصلاة والسلام والصفوة من أولى الألباب من صحابته كانوا مثالاً في حب العلم وفي استزادة منه وكانوا أهل تفكر لا أهل تعصب.

ولقد فهم عمر بن الخطاب حد السرقة الذي أتى به القرآن فلم يقطع يداً في عام المجاعة برغم قطعية النص وصراحته.. ولم يفعل عمل هذا مخالفة منه للنص القرآني بل فعله طاعة وتفهماً وتفقهاً لما فيه، وإدراكاً منه لروح الشريعة قبل نصها.

وهذه هي الأصولية في الفهم.

وهي غير أصوليتهم الجامدة التي لا تتخطى الحروف، لقد ترك لنا المسلمون الأوائل أمثلة حية لفهمهم لقرآنهم ولن يستطيع أحد أن يخدعنا بحجة الأصولية.. فنحن في مصر بلد الوداعة والسماحة والاعتدال أكثر أهل الإسلام قرباً من الأصول.

إن إخواننا الشيوعيين يتناسون كل النماذج الإسلامية ولا يتمثلون إلا بواحد هو أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ويرون فيه وحده نموذج الإسلام الصحيح، لأنهم قرءوا في

سيرته أنه كان ثائراً على الأغنياء، وكان عنيفاً في ثورته، وكان يؤلب عليهم الخليفة ويطالب بنزع ملكياتهم وتوزيعها على الفقراء، وكان يهيج عليهم الفقراء إينما سار.

وتحفظ لنا سيرة أبي ذر ﷺ هذه الحكايات ولكنها أيضاً تحفظ لنا أقوال ومواقف الصحابة من أبي ذر، بل أكثر من ذلك رأي الرسول عليه الصلاة والسلام حينما طلب منه أبو ذر الولاية وكيف أنكر الرسول عليه الصلاة والسلام طلبه وكيف أجابه في أدب النبوة بأن الولاية مسئولية، وعبء وأنه لا يصبح لهذا العبء ولا يقدر عليه، ولم يكن هذا لنقص في إسلام أبي ذر وإنما لما في طبعه من عنف وانفعال وسرعة غضب ولما في صحته من وهن.

وإجابة النبي عليه الصلاة والسلام هي مؤشر صحيح لجوهر الدعوة الإسلامية ولصلاحيات الولاية ولنظام الحكم الإسلامي الأمثل، وأنه نظام يغير ما في الناس بالحسنى واللين والقدوة الطيبة وليس بالثورة والعنف والانقلاب.

وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام على مدى أربعين عاماً مع خصومة وأصحابه كانت تأصيلاً وتأكيداً لهذا الجانب في الإسلام..

وكانت رداً كافياً لكل من قال بالعنف كأصولية إسلامية.

ألم يصبر النبي عليه الصلاة والسلام على أذى الكفار ثلاث عشرة سنة يتلقى أذاهم وعدوانهم ولا يرده عليهم حتى أذن الله للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم.. وقرر القرآن رخصة العنف لضرورة واحدة هي الدفاع عن النفس، ولدفع عنف مماثل يهدد الحياة، وأن يكون هذا بقدر ذاك ولا زيادة.

وكل هذه مبادئ مقررة وثابتة في أصل الدعوة.

لكن تجار العنف وسماسرة الانقلاب لا يكفون عن الترويج لبضائعهم الخاسرة طلباً للسلطة والجاه والتحكم والدنيا، ولأهداف وغايات ومصالح لا علاقة لها بالدين وإن اتخذوا الدين ستاراً ومطية إلى غاياتهم..

والمشكلة في هذا العصر أن كل الفرق تلبس قناع الدين، وأن الكل يرفع رأيه لا إله إلا الله، ويربى اللحية ويتكلم، عن الأصولية وفي القلوب ما فيها..

ومن واجبنا تصحيح ذاكرة المسلم عن التاريخ وكشف المؤامرة الواسعة لتشويه الإسلام، والمتاجرة به في لعبة السياسة واستعماله لقلب نظم الحكم، وإشعال الثورات وتأجيج الصراع الطبقي وإقامة المذابح الدموية، كما أرى من واجبنا أن نحارب الاتجاهات الرجعية الداعية إلى الجمود وتعطيل العقل وتعويق المسيرة الشريفة التي بدأها الإسلام من أربعة عشر قرناً نحو مزيد من العلم والعمل والتقدم.

ومن الأصول الإسلامية احترام العقل والتجديد المفيد النافع والتطوير نحو الأحسن في كل شيء والحض على العلم والعمل ومكارم الأخلاق والاعتدال والوسطية المثلى في السلوك والحياة.

ومن الأصولية أن يفكر المسلم ويجتهد كلما استجدت متغيرات لا يجد لها نصاً وألا يتجمد على التقليد.

وأمام متغيرات مثل الإيديولوجيات الديمقراطية والصراع حول الرأسمالية والشيوعية ومشاكل الاقتصاد الحديث ونظام البنوك ومسألة الفوائد والأشكال الجديدة من الجريمة والسموم البيضاء والإرهاب والدور الإعلامي للسينما والمسرح والتلفزيون.. لابد أن يكون للإسلام فكر وعطاء واجتهاد وألا يتوقف لمجرد أن هناك فرقة أو فرقاً قررت أن تتوقف فإن الزمن نفسه لن يتوقف لأحد.

الفن. حرام أم حلال..؟

الفن أحد المواهب التي يتميز بها الإنسان وهو مهارة ينفرد بها مثل الكلام والتفكير وحرية الاختيار فهو الحيوان الوحيد الذي يتكلم ويفكر ويبدع.

والفن هو تجلى أحكام الأسماء الحسنى الإلهية (الخالق والبديع والحكيم والعليم) في النفس الإنسانية التي جعلها الله بحكم كرمه قابلة لعطاء الحكمة والعلم والخلق والإبداع.. فكما تجلى السميع في سمع الإنسان والبصير في بصره كذلك تجلى البديع في إبداعه.. وتجلى الخالق فيما يخلق الإنسان من فنون.. فالفنون كلها مهارات طبيعية نولد بها.. وهي بعض عطايا الله ونعمه.

ولكن الإنسان الذي ولد حراً ومختاراً وخطاء ومتمرداً لم يوظف تلك المهارة دائماً في الخير وإنما انحرف بها أحياناً إلى الهوى والغرض والغواية وإلى مجرد جلب الشهرة والجاه والتأثير أحياناً بالنفع وأحياناً بالضرر في الآخرين.

فالفن الذي يربى العواطف رأيناه في أكثر أفلام السينما يلعب بالعواطف ويلهو بالعقول والشعر الذي يسمو بالوجدان رأيناه في أكثر الأغاني يهبط بالوجدان ويسفل بالمشاعر والموسيقى التي ترتفع بنا إلى آفاق الجمال والتأمل رأيناها تهبط بنا إلى الترقيص وحركات النسانيس وقل أكثر من هذا في هزليات المسارح وفي الحوار البذيء وفي المشاهد المسفة.. وفي عروض أقرب إلى الأفعال الفاضحة في الطريق العام.

ولأن الفن يدخل إلينا الآن خلسة من تحت الباب في الصحيفة اليومية والكتاب ويتسلل إلينا في غرفات النوم في التليفزيون والكاسيت.. فقد تحول إلى وسيلة جهنمية في تشكيل الأجيال وفي تربيتها أو إتلافها وغسل مخها.

وبهذا أصبح الفنان قادراً على أن يقتل وأن يضيع وأن يميت أمة كما أنه قادر على أن يحييها ويبعثها..

ولأن الفن سلاح قاتل فلا يصح أن يكون حراً حرية مطلقة، وحرية الفنان وحرية الفن دعاوى غير صحيحة، فالفنان حر مسئول محاسب، وكحامل أي سلاح يمكن أن تسحب منه رخصة استعماله إذا أساء هذا الاستعمال.

وإذا كان الفنان يطالبنا بأن نحميه فالجمهور القارئ والمشاهد وهم بالملايين لهم هم الآخرون حق الحماية من الإسفاف الذي يعرض عليهم.

وكلمة فنان لا تعنى العصمة من المساءلة ولا تعني الحصانة، بل على العكس تعنى المسئولية ومحكمة النقد وسيف الرقابة حماية ضرورية للمواطنين.

والتليفزيون يحتاج إلى أكثر من هذا لأنه يباشر تأثيره على الطفل والصبي واليافع وعلى المرضى في أسرتهم وعلى المراهقين في خلواتهم.

التلفزيون في حاجة إلى مجلس حكماء يمنع هذا السبيل الهابط من الأفلام والعروض

المبتذلة والأغاني الساقطة والحوار المسف والرقص البذيء.

وليس هذا كلام في الدين.. وإنما في أوليات علم الاجتماع.

أما الفنان الذي يسألني.. هل ما أفعله حلال أم حرام؟

فأقول له.. أنا لا أفتيك.. ولكن يفتيك قلبك.

اسأل نفسك هل ما تفعله نافع ومفيد للناس؟ أم تراه ضاراً بهم؟

وستعرف أين أنت.

ولا مانع من أن يكسب الفنان ويزداد غنى ولكن من طريق يجعل مشاهديه وقراءه يكسبون هم الآخرون ويزدادون به ثراء وغنى.

أما الفنان الذي يهبط بقرائه وينزل بمشاهديه فإن ما يأخذه من مال لا يدخل في باب الكسب لكن في باب النشل.

والذي يسأل.. هل هناك فن رديء.. وكيف يمكن أن يسمى فناً برغم رداءته.. أقول بل هو فن ولا يمتنع على الفن أن يكون رديئاً.. لأن الفن مهارة وموهبة والموهبة يمكن أن يوظفها صاحبها في الخير ويمكن أن يوظفها في الشر.. وهي كالقوة العضلية وكحدة البصر وحدة السمع وسرعة البديهة والذكاء وكلها مواهب أحياناً توظف للخير وأحياناً للجريمة.

والفنان يمكن أن يكون شريراً فيعبر عن شره في فنه ومن الأعمال الفنية العالمية ما يقطر تشاؤماً ومنها ما يسيل حقداً ومنها ما ينبض بالعدوانية ومنها ما يحض على الفوضى ومنها ما يدعو إلى المادية والإلحاد والرفض والعدمية.. وأصحاب هذه الأعمال فنانون عالميون من حملة النياشين والجوائز.. ولهم جاه وشهرة وجمهور.. ولهم يخوت وقصور.

ولكن هذا الفن السالب يدخل عند الله في باب الذنب وإن كان في ناموس الدنيا يدخل في باب الحسنات ويدخل أصحابه في باب العظماء.

ومقاييس الدنيا تخطئ أحياناً وهي تتغير دائماً وفي جميع الأحوال.. فكم من ملايين

المشيعين ساروا يبكون خلف، جنازة ستالين.. وكم كتاباً مجده وكم مقالة عظمته وكم تمثالاً ارتفع له وكم عملة ذهبية صكت باسمه.

ثم تغيرت المقاييس فأصبح الممجد معلوناً والمعظم مطروداً.

ولا ندرى ماذا يجرى غداً في العالم الذي يتغير فيه كل شيء.

وما يجرى في بورصة العظمة الفنية أعجب.

وبالأمس بيعت لوحة للفنان فان جوخ بأربعين مليون دولار..

وفي حياته كان يحاول أن يبيعها برغيفين فلا يجد مشترياً.

وبيكاسو مات في قمة مجد فني ولا ندرى بعد مائة سنة ماذا يقول الفنانون أنفسهم في تراثه الفني.

فالفن الخير البناء هو الذي سيبقي لصاحبه وهو الذي سيغدو له حسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة.

أما الفن الضار والهدام والهابط.. فهو الخسار والبوار مهما جلب لصاحبه من ثراء ومال ومجد دنيوي ومهما حمل له في قبره من جوائز وأوسمة ونياشين.

وكم من فنون هي في النهاية مجرد لهو وقتل للوقت ومضيعة للعمر.

وكم من أشعار عظيمة السبك وهي مع ذلك غزل في المذكر أو مدح لحاكم ظالم أو هجاء موتور أو زهو مغرور أو تأله فارغ.

وهي فن متألق وكلمات تخلب اللب ولكنها في الآخرة أوزار يتمنى صاحبها لو لم ينطق بها، ووصمة يتمنى لو يبرأ منها.

***

إلى أين نسير؟

يلفني عالم من الهدوء والسكينة والشاعرية كلما عادت بي الذاكرة إلى أيام زمان وتأتي المشاهد إلى خيالي ومعها صوت الوتريات الموسيقية الرقيقة وقصائد عبد الوهاب ويإليل يا عين وكلنا نحب القمر وشجاني نوحك يا بلبل وكروان حيران ومطولات أم كلثوم التي كانت تستمر ثلاث ساعات والأذن تسمع في استرخاء وخلو بال والرؤوس تهتز في طرب وكما يا ست كمان.. لا استعجال ولا قلق ولا توتر.. وفي الصفوف الأولى تجلس الصفوة من رجالات مصر من أطباء ومهندسين وفنانين وبكوات.. والشوارع خالية آخر الليل وأفيشات الأفلام تسطع عليها الأضواء.. الوردة البيضاء.. العزيمة.. فجر الإسلام.. دعاء الكروان.. ورذاذ المطر المنعش.. وطعم ساندويتش لذيذ بالفول.. وأحلام رفافة تهدهد القلب.

أيامها لم نكن نعرف لنا عدوا سوى الإنجليز.. ولم تكن قد ظهرت بعد التيارات الشيوعية والماركسية التي قسمتنا إلى يمين ويسار، وجعلت منا أعداء لبعضنا البعض، وأشعلت البغضاء والكراهية في الشارع الهادئ.

كانت أياماً رخية من الصداقة والمحبة والمودة.

وأتيقظ فجأة من الذكريات وكأنما لطمني الزمن بعنف وأتلفت حولي في عالم إليوم وأقرأ على الجدران أفيشات الأفلام وأتابع بذهول تطور العناوين.. بركان الغضب.. المنحرفون.. المخربون.. الوجه المدمر.. العيون النارية.. صرخة الشيطان.. وكر الأشباح.. قوة الانتقام.. السيف الملعون.. المشاجرة الكبرى.. عصابة العنكبوت.. التحدي الرهيب.. الرغبة الملتهبة.. المرأة والكرباج.. القتلة..

وأفتح الراديو فأسمع صراخ الديسكو وموسيقى نحاسية تصك الأذن وغناء أشبه بالتشنجات.. وفي المسرح لا أرى في الصفوف الأولى إلا تجار مخدرات وباعة كاوتش وتجار شنطة وسماسرة عملة ولا أرى من الفنون المعروضة إلا ما يرضى مزاج هؤلاء من نكات بذيئة وهزليات هابطة.. ما أسرع ما تطورنا..

فإذا نقلت مؤشر الراديو بين المحطات العربية سمعتها تشتم بعضها البعض، وسمعت قذائف الاتهام بالخيانة يتبادلها الإخوة في فحش وإسفاف.. ولا أرى جارة إلا وهي في حرب مع جارتها.

فإذا فتحت الصحيفة طالعتني أعمدة طويلة عن التلوث والإرهاب وخطب الطائرات وتفجير السيارات الملغومة واندلاع الحروب والمجاعات وأزمة الطاقة وأزمة الغذاء وارتفاع الدولار وهبوط الجنيه والتحريض على الإضراب والترويج العلني للفتن.. والإشادة بالتخريب.. والحض على الفوضى.

وفي الشارع تدفعني الأكتاف وأطالع المحجبات والمنقبات والعاريات على مقعد واحد في أوتوبيس.. وأرى الوجوه هضيمة شاحبة فيها غل وكمد.. وأرى النظرات متوترة والحركات عصبية وأرى الكل يهرول وكأنما ينزل على ظهور الجميع كرباج خفى.. وأخرج من زحام إلى زحام. وأمام الفاترينات أرى طوابير وعيوناً جاحظة تلتهم المعروضات في نهم وشبق.

وفي القاهرة ألف مسجد.. ولكن لا أرى فيها طمأنينة الإيمان التي كنت أراها في الأربعينات والثلاثينات..

ماذا جرى للدنيا؟

وفي أي زمن نعيش؟

هذا زمان الضنك يا سادة برغم العلم والاختراعات والفيديو والتلفزيون والنزول على القمر واختراق الفضاء وتحطيم الذرة وجراحة الليزر وزرع الأجنة والهندسة الوراثية وعجائب الكمبيوتر.. لقد تقدمنا.. كسبنا الكثير هذا صحيح.. لكن ما خسرناه كان أكثر.. خسرنا النبل والإنسانية والمحبة والوداعة والبساطة والشهامة والجمال والأناقة والنظافة.

أين شجاعة أجدادنا الذين كانوا يلتقون وجهاً لوجه وسيفاً لسيف من نذالة وخسة الأحفاد الذين يرسل الواحد منهم للآخر طرداً ملغوماً لينفجر في وجهه أو في وجه

السكرتير البريء الذي يصادف أن يكون أول من يفتح الطرد.

وهذا الجبان الآخر الذي يزرع قنبلة في طائرة لتنفجر في الجو وتقتل أطفالاً ونساء وشيوخاً من جنسيات لا يعرفها وليس بينه وبينهم عداء.. ثم يدعى بعد ذلك أنه بطل وأنه صاحب قضية ثم يجد جبناء آخرين يدافعون عنه في الصحف ويصفونه بأنه مكافح ومناضل.

في أي زمان نعيش؟

لقد قرأت بعيني في الصحف من يكتب ليسمى هزيمة ١٩٦٧ نصراً، وقرأت في عام ١٩٧٣ من كتب ليسمى العبور والانتصار هزيمة.. وكأنما أصبح قلب الحقائق فصاحة والتزوير بلاغة يتباهي بها صاحبها.

أين زمان الحياء؟

لقد وقعنا نحن الدول الصغيرة النامية في الشباك العنكبوتية للماكرين الكبار.. وهم قد وضعوا الكلام في أفواهنا فأصبحنا نتكلم كما يريدون ونقتل من يريدون أن نقتل ونحارب من يريدون أن نحارب ونظن أنفسنا أحراراً ننفذ مشيئتنا وما ننفذ في الحقيقة إلا مشيئتهم.. ومشيئتهم هي الفساد والإفساد بكل السبل.. وبأيدينا لا بأيديهم.

ونحن نوفر لهم الدم والمال وسوء السمعة فنقوم بقتل أنفسنا بدلاً منهم وتمزيق وحدتنا بدلاً منهم..

تركوا لنا المهمة القذرة لنؤديها.

ونحن نؤديها بنشاط.. بل نتنافس على تأديتها..

أنا لا أتهم أحداً.. فنحن جميعاً متهمون.

نحن صناع هذا الزمن.

والاعتراف بالحقيقة هو الأمل في إصلاح المسار.

أصلح نفسي وتصلح نفسك ويصلح الكبار أنفسهم ويجد الجبناء أنفسهم معزولين

محاصرين محتقرين لا يعبأ بهم أحد ولا يسمع لهم أحد.

وربما كان عزاؤنا أن البلاء شامل والمصيبة عامة.

فهل لندن اليوم هي لندن الثلاثينات.

وهل باريس اليوم هي باريس الثلاثينات.

إن التدهور شمل الجيل الثاني في أوروبا وإنجلترا وأمريكا.

فلم يخرج هذا الجيل قمماً تضاهي بيتهوفن وشوبان وفاجنر وشابلن بل أخرج الخنافس وألفيس بريسلي ومايكل جاكسون وبوى جورج وحفنة من أبطال الكاراتيه، ووصلت السيارات الملغومة إلى قلب الشانزليزيه، وانفجرت القنابل في مطار هيثرو، وانطلق الرصاص على البابا في الفاتيكان، وتكررت حوادث الخطف في روما، ولم يسلم مكان في أوروبا من الإرهاب والفوضى والمخدرات ولم تسلم أيدي الكبار الذين يدبرون ويحيكون المؤامرات من أن تحرقها النار.. والمفاعل الذري الذي يجهزون فيه وقود البلوتونيوم لتحضير القنابل الهيدروجينية للترسانة الروسية.. وصل خطره إلى شواطئ السويد وأطلق سحابة من الإشعاع القاتل ظللت أوروبا بأسرها.

لن يسلم الكبار من النار التي يشعلونها للصغار.

التهديد سوف يشمل الكل.

والضنك سوف يخيم على الكل.

وحينما تغرق السفينة لن ينجو أحد.

الكبار سوف يسبقوننا إلى القاع.

لا غالب ولا مغلوب.

لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم.

ولكن برغم الصورة العامة القاتمة لتداعى الحوادث فإن هناك جزراً صغيرة من

الأمل في البحر المظلم الذي ارتفع فيه الموج.. جزراً من الخير.. ليست دولاً لكن أفراد وجماعات وأقليات هنا وهناك في كل مجتمع.

أقليات نذرت نفسها للخير وللعمل البناء.

أفراد وقفوا حياتهم على القراءة والعلم والتأمل والتدبر والتفكر.

وآخرون وقفوا حياتهم على التجريب في المعامل والمختبرات والمراصد ومخترعون يبحثون في حل طلاسم الطاقة.

وزراعيون يبحثون في استنباط الغذاء من الصحاري ومن قيعان البحار، وأطباء يسهرون لاكتشاف أسرار الصحة والمرض..

وأهل محبة ووداعة ينشرون المحبة بالقدوة وبالسلوكية المثلي وأهل بصيرة يقدمون نماذج عليا من الإيمان والعمل الصالح والحياة البارة.

وأهل صدق لا تفسدهم رشوة ولا تبدلهم غواية.

ومن أجل هؤلاء يحفظ الله أركان الدنيا ويبقي عليها برغم كثرة المفاسد والانحرافات، لأنه من ظهور هؤلاء ومن أصلابهم تخرج الصفوة من الهداة والمصلحين الذين ينتقل بهم التاريخ من حال إلى حال.

وتبقى في الذهن صورة عجيبة لهذا الزمن العجيب الذي جمع بين أقصى الشر وبين أقصى الخير وبين أقصى العلم وبين أقصى الجهل وبين أقصى الوفرة وبين أقصى المجاعة وبين غاية الحقد والرفض وبين تعدد وسائل الاستمتاع ويسر العيش وسهولة الإشباع وبين قمة المرح وبين حضيض الاكتئاب.

ذلك الزمان الذي تجد فيه النفس فرصها اللانهائية لتنفع وتضر وتلك في نظري أكبر ميزاته.. أنه زمان الفرص.

والسعيد من حاول أن يغتنم لنفسه فرصة خير ومناسبة نفع وأن يجد لنفسه موطئ قدم بين الأقليات الذين ذكرناهم.. الأقليات العاملة في صمت.

ولينسى مؤقتاً ماذا يكسب وماذا يخسر.. فإن الأغلبية إلى خسارة.. وأكثرهم خسارة هم الذين يبدون إليوم أكثر وجاهة وأكثر مكسباً.

وسوف يسحب التاريخ بساطة فيمحو آثارهم جميعاً ولن يبقي في قائمة الذكر الحسن إلا أنفع الناس.

هل هم رجال أم عيال؟

دار الزمان دورته ولم يعد الشيوعي يستطيع أن يقول إنه تقدمي وإن غيره من المذاهب رجعي، ولا عادت الماركسية تستطيع أن تدعى أنها الوعد المأمول بالرخاء لكل الشعوب، فأكثر الدول التي اختارت الماركسية أصبحت أسوأ فاترينة للمذهب.. والواقع في كل مكان أصبح يقول شيئاً آخر غير ما تقوله المنشورات، ومعظم الشعارات التي عشنا على أوهامها في الخمسينات أصبحت أكاذيب.

ولم تعد التقدمية ولا الرجعية رهنا بمذهب ولا الرخاء رهنا بأيديولوجية وإنما ظهر شيء جديد اسمه التكنولوجيا والاندفاع الصناعي، وعلوم جديدة مثل الهندسة الوراثية، وعلوم الفضاء والتخليق الكيماوي للمواد والكومبيوتر، وأصبح بالإمكان أن تحل أزمة الغذاء وأزمة الطاقة وأزمة الإنتاج داخل معمل ودونما حاجة إلى ثورة وشعارات وصراع طبقي وحكومات سلطوية قمعية تسجن الناس وتقتلهم ثم لا تفعل شيئاً بعد ذلك ولا تقدم رخاء بل يندفع الرفاق الثوريون ليقتل بعضهم بعضاً على القمة بحجة الولاء للمذهب وبحجة خدمة الشعب.. ولا مذهب هناك سوى حقد يأكل بعضه بعضاً ونزوات للتحكم والتسلط يكون الشعب دائماً أول ضحاياها.

ولقد أدعت الشيوعية منذ ميلادها أنها ستقوم بهذا الاندفاع العلمي والصناعي والتكنولوجي ولكن خطوتها كانت قصيرة ونفسها كان قصيراً لأنها اندفعت من نقطة صراع ومن بداية قهرية قمعية فما كادت تتقدم خطوات حتى توقفت، وما لبثت اليابان الرأسمالية وأمريكا الرأسمالية بل وحتى ألمانيا الغربية المهزومة في الحرب أن سبقتها وتقدمت عليها.

وتحولت روسيا إلى الطرف الرجعي الذي يستورد الخبرة والتكنولوجيا من بلاد الخصوم.

واعترفت الصين بأخطاء ماو وفتحت أبوابها لأمريكا.

أما البلاد الأصغر فكان حظها أسوأ وإعلانها عن فشلها أبلغ.

ثار العمال في بولندة وخلعوا صورة لينين ووضعوا مكانها صورة البابا، وتدهور الاقتصاد البولندي وأصبح يعيش على صدقات الأعداء، واشتملت المجاعة على جميع أرجاء أثيوبيا، ورأينا هونيكر في ألمانيا الشرقية يمد يده إلى ألمانيا الغربية يطلب المعونة أما المجر وتشيكو سلوفاكيا مهد صناعة الصلب فقد وقفت "محلك سر" منذ أن داستها الدبابات السوفيتية أيام دوبشك.

أما عدن فقد رجعت إلى الوراء إلى عصر الغابة إلى قبلية بدائية مخزية ورفاق يقتل بعضهم بعضاً ويفجرون بلادهم بالقنابل والصواريخ (أحداث يناير ١٩٨٦).

وظهر في معسكر اليسار بلاد مثل ليبيا تشتغل بتصدير الرعب إلى الدول العربية وإلى الدول الأوروبية وتقتل الأبرياء تحت شعارات ثورية زائفة.

وإذا كان الواقع يعلمنا شيئاً فهو أن نكف عن هذا الهراء الأيديولوجي ونضع أيدينا على المفتاح الوحيد للتقدم وهو التكنولوجيا والعلم والمنهج التجريبي وندرك تماماً أن هذه الأشياء لا وكن لها ولا مذهب فلا توجد تكنولوجيا يسارية وتكنولوجيا يمينية ولا علم روسي ولا علم أمريكي.. فالماء يغلي في درجة مائة في كل البلاد، وقوانين الجاذبية صالحة في كل وطن.

والتربة الضرورية لنمو العلم هي الاستقرار والأمن والديمقراطية والصلح الاجتماعي وليس الصراع الطبقي والتآمر والشجار.

إذا تحول الخمسون مليوناً من المواطنين في مصر إلى خمسين مليون عقل يفكر ويعمل كان هذا التحول هو التقدمية.

العلم والتكنولوجيا والإنتاج يصنع الرخاء ثم يأتي الرخاء بدوره فيدفع العلم

ويدعم التجربة فالتجارب اليوم مكلفة (المكوك تشالنجر ثمنه فوق الألف مليون دولار).

وفوق كل شيء.. العقل البشري.. الجوهرة الحقيقية والطاقة المبدعة الخلاقة التي تصنع بانطلاقها كل شيء.

إن تشغيل العقل وإطلاقه من قيوده وتوفير الظروف لعمله هو المفتاح الحقيقي لدخول هذا العصر وللجلوس على مائدة الأقوياء.

فهل نبدأ؟ أم سوف نعود فنسمع فقهاء الماركسية يملئون الصفحات وينشئون المجلات ويعقدون الندوات ويجروننا جراً إلى معارك طواحين الهواء بين اليمين واليسار وإلى مهاوي التخلف إلى لا يريدون منها خروجاً.

إن الواقع العربي انحدر إلى ما تحت الصراعات المذهبية فأصبح نهباً للصراعات الشخصية وما عادت المذاهب المعلنة إلا ذرائع.. ولأن الماركسية حكم سلطوي قمعي وشمولي فهو يعطى أسهل مبرر للتسلط.. ولهذا كان الاندفاع اليساري والمزايدة عليه هو القاعدة بين كل القوى العربية.. ليس لأنه الأفضل للشعوب البائسة المطحونة ولكن لأنه الأفضل للحكام الذين يحلمون بالتسلط والانفراد بالرأي وسحق خصومهم.. كن ماركسيا تصبح لديك الفرصة لتقتل أكثر.. ومن هنا كان هذا الاختيار البائس لهذه القيادات الشبحية المتخلفة والمشهد التراجيدي لهذه الساحة التي تتناثر فيها جثث القتلى.

ولن نخرج من هذا التخبط إلا إذا ولد الوعى من هذا المخاض المؤلم بأننا نسير في طرق خاطئة ونضيع في حوار مسدودة ونرفع شعارات كاذبة ونجرى وراء مذاهب مضللة.

هل يمكن للإنسان المصري أن يضيف شيئاً لهذه الصيحة المدوية التي هي عنوان العصر.. صيحة العلم والتكنولوجيا والكومبيوتر والفضاء.

نعم اعتقد أننا نستطيع أن نضيف الخبرة التي استقيناها من سبعة آلاف سنة من الحضارة.. نضيف إلى العلم بعداً ثانياً هو الأخلاق الإيمانية الكريمة ونضيف إليه نقاء التوحيد.

ونستطيع أن نقول إن هذا هو البعد المفقود.. وأن العلم ينطلق إلى قوة وحشية إذا ترك بدون ضوابط خلقية.. وأنه بدون التوظيف الخلقي لهذه القوى العلمية في الخير يمكن أن تتحول إلى قوى مدمرة تدمر أول ما تدمر أصحابها الذين أطلقوها من عقالها.. وأن العلم والإيمان هما وجهاً الإنسان الكامل الذي لا يمكن أن يكون كاملاً بدونهما.

ولكن يجب ألا يأخذنا الغرور فنظن أننا جلسنا على كرسي الفتوى فنحن للأسف لم نبلغ بعد شأوا يذكر لا في العلم ولا في الإيمان الذي ندعو إليه.. وأغلب التدين الذي نراه من حولنا شكلي ولهذا ما يلبث أن يتحول إلى جدل ثم شجار ثم تناحر ثم يفعل بأصحابه ما فعل اليسار بأصحابه.. لأنه ليس تديناً حقيقياً بل زخرفاً شكلياً وشعارات جوفاء.

وتلك ظواهر تخلف وعلامات طفولة حضارية (المنطقة العربية كلها حديثة عهد بالاستقلال) ولهذا كان المسرح العربي ساحة أكثر من يلعب فيها عيال سواء الذين يرفعون منهم شعارات دينية أو شعارات ماركسية.. النضج غائب والأصالة مفتقدة.. وأهل الكمال أغلقوا عليهم أبوابهم وأصبحوا لا يتكلمون إلا همساً.

نحن متخلفون.. هذه حقيقة.. ويجب أن نعلم أننا نبدأ من الصفر.. وأننا برغم أن عندنا الحل وعندنا المفتاح السحري للمشاكل فإننا لا ندرك قيمته.. بل أكثر من هذا نسئ استعماله.

وإلى أن يولد الوعي من المخاض الأليم وإلى أن يولد الجيل الجديد من الإنسان الكامل إنسان العلم والإيمان.. الإنسان القدوة.. المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً. فإن الساحة سوف تظل مسرحاً للثورة والقتل والانقلابات المتكررة بلا جدوى.

وانتظاراً لهذا اليوم أقول لكل واحد.. ابدأ بنفسك.. حاول أن تصلح ذاتك بدلاً من أن تجلس على كرسي الفتاوى وتتهم الآخرين.

***

من هو بوذا؟

جوتاما بوذا.. المعلم والحكيم والفيلسوف، الذي ظهر في سيلان منذ أكثر من ألفي عام ليهدي الناس إلى سبل السعادة ويدلهم على طريق الخير تحول الآن إلى أسطورة ولغز.

ولو سألت الآن أحد اليابانيين: ما هو بوذا، لوجدت أجوبة بعدد من تسألهم.. فالبوذا هو أنا.. والبوذا هو أنت.. والبوذا هو الوردة.. والبوذا هو هذه العصا.. والبوذا هو الحقيقة، والبوذا هو السر.. والبوذا هو شيئية أي شيء، والبوذا هو جوهرك.. والبوذا هو العدم.. والبوذا هو الدائرة الفارغة.. والبوذا هو الصفر.. والبوذا هو الذي لا تعبر عنه الكلمة، والبوذا هو الذي ليس كمثله شيء.

ويقولون لك أدخل في "الزن" ZEN وأنت تعرف، فإذا سألتهم: وما هو الدخول في "الزن"؟ قالوا: فقط أجلس جلسة تأمل هادئة، وأغلق عينيك، وأسكت صوت خواطرك ورغباتك ثم تخطى نفسك وأسمك وعلمك وعملك وحظك وجاهك وكل متعلقات هذه النفس وأطماعها.. ثم تجاوز هذا كله فتصل إلى الراحة وإلى السكون المطلق وإلى الفراغ والصفر، فذلك هو البوذا، وذلك هو حقيقة كل شيء فأنت الآن تلامس جوهر الوجود وأنت تلامس حقيقة جميع الموجودات فتلك حقيقة الوردة والثمرة والميكروب والعصا والكلب والشجرة والنجم وشكسبير.. وأنت الآن قد أصبحت ذلك الفراغ الملئ، فأنت الآن كل هؤلاء.. وهم جميعاً أنت.. أنت الصفر واللانهاية.. وأنت الآن أدركت وعرفت فالزم، فلا بوذا هناك وإنما نفسك في إطلاقها وتجردها وشمولها محيطة متحدة متوحدة مع الكل.

ولهذا يقول العارف منهم: هناك بوذا لمن لا يعرف بوذا.. أما الذي يعرف فليس عنده بوذا.

أنت تحتاج البوذا حتى تنتزع شوكة نفسك، فإذا انتزعتها فقد انتزعت البوذا معها.

ويقول لك العارف:

قبل الدخول في "الزن" تبدو لك الوردة وردة، والعصا، عصا، فإذا دخلت في

"الزن" لا تعود الوردة، وردة، ولا العصا، عصا.. فإذا خرجت من "الزن" عادت الوردة، وردة وعادت العصا، عصا.

وحالة الصفر، أو حالة "الفناء" ويسمونها "النرفانا" هي منتهى أمل البوذي.. وهي غاية السعادة والسكون الداخلي الذي لا تزلزله الزلازل ولا تحركه النوازل.

فإذا قلت له: كيف يكون الصفر هو الحقيقة، وكيف يكون الفناء هو الغاية التي يسعى إليها العارف؟! قال لك تخيل الزمن.. تخيل عمرك الذي تعيشه.. إنه ماض انتهي، ومستقبل لم يأت بعد.. وبينهما نقطة افتراضية بين امتدادين.. لكن هذه النقطة أو هذا الصفر الحسابي هو كل الامتلاء الذي نسميه الحاضر أو الواقع الذي نقتتل عليه والذي ما يلبث أن ينصرم ويزول ويصبح شبحاً خاوياً في برواز قديم اسمه الماضي.. وكل بكائنا وكل همنا واهتمامنا مشغول بهذا الصفر.. بهذه الدائرة الفارغة.. وإذا أدركنا هذا فسوف نستريح، وينتهي عذابنا وينتهي بكاؤنا وتجف دموعنا.

إذا أدركت أن منتهى الامتلاء هو منتهى الخواء فأنت البوذي الواصل وقد عرفت فألزم.

ولكي يصدمك ويوقظك من غواشي الحس.. وغرور العقل الذي يحجبك فإن البوذي العارف يفاجئك بأمثال هذه الأسئلة المحيرة.

-ما صوت يد واحدة تصفق؟

-ما شكل وجهك قبل أن تولد؟

-ما حقيقة البوذا في كلب؟

ويقرعك على ظهرك بمقرعة مثلما يقرع الطبيب المولود عند ولادته لكي يأخذ أول شهيق ويدخل الهواء رئتيه، فهكذا يفعل بك لتصحو وتولد من جديد.

فإذا انفجر عقلك من التفكير دون جدوى ودون أن تجد جواباً شافياً على أسئلته قال لك.. ادخل في "الزن".. تجاوز عقلك ونفسك وحواسك وأخرج من هذه المحارة التي تسجنك تصل إلى الحقيقة.. إن كلاماً يخرج من شفتين بإليتين محدودتين لن يكون إلا

هراء.. فالحقيقة لا يمكن التعبير عنها بكلام ولا بحروف.. إنها إشراقة، واستنارة باطنية تضيء وجودك كله.

وطائفة "الزن" تعود في أصلها إلى "كاشابا".

و"كاشابا".. هو أحد تلاميذ بوذا.

وتحكي القصة أن جوتاما بوذا وقف ليلقى آخر دروسه على تلاميذه.. ولكنه لم يتكلم وظل صامتاً ثم اكتفى بأن يقدم وردة وتساءل التلاميذ عن المعنى الذي قصده بوذا ما عدا كاشابا فإنه ابتسم.. فقال بوذا: "هو ذا أحدكم استطاع أن يفهم ما لا يمكن التعبير عنه بكلام.. وهو ذا يقوم من بعدي فيعلمكم".

وهكذا بدأت طائفة "الزن" وطريقها الصمت والسكون والتأمل.

وليس لهذه الطريقة كتاب ولا تعاليم ولا تسابيح وتكاد تكون ضد النطق بأنواعه، وتكاد تكون ثورة على ابتذال الحقيقة بالكلمات.

ولكن البوذية الأولى التي جاء بها بوذا منذ أكثر من ألفي عام كانت أبسط من ذلك بكثير.

إن جوتاما بوذا الذي كان الابن المدلل لعائلة ارستقراطية.. والذي ضاقت نفسه بالترف الفارغ، فترك قصر أبويه، ولبس الخرقة وهام في الغابات بحثاً عن الحقيقة.. قد ظل يسعى في الأرض وقد طوى بطنه على الجوع.

وتحت شجرة وقد بلغ منه الصيام كل مبلغ، أشرقت عليه الحقيقة، وأدرك أن طريق السعادة الحق هو في قمع النفس، وكبح رغائبها.. فإذا سكتت الرغبة وخرست الشهوة وانتهى الطلب، سكت اللهاث المجنون، وانتهى الألم، وانفتحت في القلب أبواب الحكمة.

النفس الراغبة الشهوانية هي الحجاب، وهي سبب التعاسة والألم، فإذا تجاوزتها وتخطيتها تحررت وبلغت غاية الراحة والسعادة.

تلك كانت تعالم بوذا.. وذلك كان طريق الفضيلة بالنسبة إليه.

ولم يبلغنا في الآثار الباقية عن بوذا أنه تكلم عن إله أو آخرة أو حساب أو روح أو غيب، ومع ذلك فهو في أكثر أقواله يتكلم عن "الواحد".

فماذا كان بوذا يعني بالواحد؟!

بعد أن انطوت آلاف السنين على تلك الأقوال ودخل عليها كل ما يدخل على الأقوال والسير من تحريف وإضافة وتغيير، لا يتبقي لنا إلا ما يتداوله البوذيون من تراث.

وهو يقولون في هذا التراث إن بوذا لم يكن يعتقد في ثنائية خالق ومخلوق.. وإنما اعتقد دائماً في واحدية تقول "بأن الخالق هو عين المخلوق كلاهما واحد".

الكون هو عين المكون، والكل واحد.

الله هو الكل، هو مجموع السموات والأرضين وما عليها وما بينها.

يقول ذلك الواحد في أبيات غريبة من الشعر:

"إذا ظن القاتل أنه قاتل

وظن القتيل أنه قتيل

فإنهما لا يدريان ما خفى من أساليبي

حيث أكون أنا الصدر لمن يموت

وحيث أكون أنا الذراع لمن يقتل

وحيث أكون أنا القاتل والقتيل والسكين

وحيث أكون كل شيء حتى الموت نفسه.."

وتلك هي وحدة الوجود الهندية التي تجعل من الله ومخلوقاته شيئاً واحداً.

ولم يكن هذا كل ما جرى على أقوال الحكيم بوذا، بل إن البوذية انقسمت في إليابان وحدها إلى ثلاث عشرة شعبة.

ولم تكن "الزن" إلا واحدة من تلك الشعب. و "الشنتو".. هي شعبة أخرى.

و"للشنتو" في عاصمة اليابان القديمة ألف وخمسمائة معبد من مجموع أربعة آلاف وخمسمائة معبد بوذي.

وطائفة "الشنتو" يؤمنون بالروح، ويقدمون لها القرابين ويطلبون منها العون والهداية.. وللروح كهنة وخدام.

وفي كل معبد كاهن خاص يلجأ إليه المواطنون ليقرأ لهم طالعهم.

ولا نفهم ما هو الروح المقصود، وكيف ومتى خرج هذا الروح من عباءة بوذا.

وطائفة ثالثة.. تؤمن الآخرة والبعث، وبعالم من الفردوس، ينتهى إلى الناس، كل الناس، بعد أن يتطروا وتكتمل نفوسهم.. ويؤمنون برب واحد، هو "اميدا بودا".. هو الله النور والحياة.. وهي طائفة حديثة خرجت إلى النور منذ ثمانمائة سنة.

وسبيل النجاة والهداية لكل إنسان في هذه الطائفة، هو أن يتوكل على "أميدا بودا" ويطلب منه العون والقوة.

ويقولون إن "أميدا بودا" هو نفسه بوذا بعد أن تخطى مرتبة البشرية ثم عاد فتجاوز مرتبة الكينونة، وأصبح في الإطلاق والتجريد لا سبيل إلى الوصول إليه.

ولكنه من فرط حبه أرسل رحمته المهداة "بودا ساتفا".. ليكون الواسطة بينه وبين كل المخلوقات ليأخذ بيدها جميعاً إلى مراقى الفردوس الأعلى.

يقول مستر "سوجيتا" وهو رجل أعمال ياباني: إن طريقة "الزن" تحتاج إلى وقت ولا أحد يفهمها، ولا تلائم هذا العصر.. ولكن ديانة "الأميدا بودا" يفهمها الكل.

وفي اليابان عشرون مليوناً من أتباع "الأميدا بودا" ويسمون مذهبهم طريق الفردوس Pure Land Sect وطائفة رابعة هي طائفة "سوكا جاكاي".. أو البوذية الجديدة.. وهي طائفة ترفض الغيبيات وترفض التفلسف وترفض الغموض.. ومعابدها عمارات مبنية على أحدث الطرز العصرية وتعمل بالأزرار والإلكترونيات.

ودينها التخلق بمكارم الأخلاق.. مجرد مكارم الأخلاق ولا شيء سوى ذلك.

وطوائف أخرى.. وأخرى..

وأفكار بلا عدد..

وطرائق تتشعب إلى الهدف، وإلى نقيضه.

وأسأل نفسي: ترى لو بعث بوذا حياً وذهب إلى إليابان.. هل يتعرف على البوذا هناك.. وهل يعرف كل منهما الآخر؟!

وهل نتعرف نحن أهل الأديان السماوية على ملامح مشتركة بيننا وبين هؤلاء.

وهل يقف كل الأنبياء على أرض واحدة، برغم تقادم العهد، وكثرة التحريف وانقسام الأديان إلى عشرات الملل والنحل؟!.

نعم.. برغم كل ما طرأ على الوحي الذي تلقاه الأنبياء من تحريف، ورغم الفتن والانقسامات، فإن الدارس للأديان دراسة مقارنة يشعر بالأرض المشتركة التي يقف عليها كل الأنبياء.

إنهم جميعاً اتفقوا على الحض على مكارم الأخلاق، والأمر بالمعروف، وقمع الشهوات.. وتكاد تكون ألواح الوصايا واحدة في الجميع.

وكلهم تكلموا عن الواحد.. وإنما اختلفت الروايات عن هذا الواحد بسبب تقادم العهد والتحريف.

وكلهم اتفقوا على أن جهاد النفس هو السبيل الموصل إلى المعرفة والاستنارة، وسكينة القلب.

وكلهم قالوا بالبعث وحياة الآخرة، حتى ديانات الفراعنة والديانات الوثنية.

وكلهم سلكوا بالتصوف على نفس الدرب.. بالصوم.. والصمت.. والخلوة.. والتأمل.. ورياضة النفس على الصبر والحلم وكظم الغيظ وتحمل المكاره والزهد في الخسائس.

وكلهم كانوا طلاب علم وطلاب حق وطلاب عدالة.

وبرغم ما فعل الزمان بالتواريخ والسير والكتب والأقوال.. فإن الأصابع جميعاً كانت تبدو أنها تشير إلى شيء واحد.. إشارة مرتعشة أحياناً، وإشارة ثابتة أحياناً.. ولكن دائماً إلى نفس الاتجاه.

وكأن الكل يقول: هو..

أحياناً بالإشارة..

و أحياناً بالعبارة..

وأحياناً يختلط الـ "هو" بالـ "أنا".

وأحياناً يتحد الاثنان في وجدان صوفي محموم فيصير النبي في نظر أتباعه إلهاً، والمخلوق خالقاً.. وتلك خطايا المغالاة التي تؤدي بأصحابها إلى الكفر.

ولكن أهل البصائر سيرون نور البدر، برغم السحب وبرغم غواشي التحريف، وبرغم الاختلاف.

ولهذا جعل الله القرآن كتاباً مهيمناً على جميع الكتب لأنه وحده المحفوظ برحمته فهو وحده المرجع عند الاختلاف وبه تمت الكلمة.

فما أكثر الرسل عبر التاريخ مما نعرف ومما لا نعرف ولكن ما أكثر ما تعرضت كلماتهم للتغيير والتحريف.. وصدق الله العظيم.

الخروج من المستنقع

النفس في تصور فرويد.. غرائز تطلب الإشباع في طرف ثم بيئة مادية هي مجال لهذه النفس ومحل لفعلها وانفعالها في طرف آخر.. ثم لا شيء وراء ذلك.. لا روح ولا إله ولا غيب ولا شيء من وراء هذه الدنيا المادية الكثيفة الغليظة.

الغرائز واللاشعور والطاقة الجنسية هي الإله الحاكم والكل في خدمته.

والخمس السنوات الأولى في حياة الطفل هي التي تحدد سلوكيته ونفسيته إلى ما تبقي من سنوات عمره.

وما نفعله وما نفكر فيه وما نحلم به يتم في جبرية وحتمية تبعاً لما ينفثه فينا اللاشعور والعقل الباطن.

فالإنسان مدفوع دائماً بقوى لا معقولة وملقى به نحو أفعال قهرية لا تبصر فيها ولا روية.. وهو مغلوب على أمره لا حيلة له ولا مخرج.. وكل ما يملكه العقل هو أن يحاول تبرير هذه الرغبات البهيمية والبحث عن وسائل مقبولة لإشباعها أو التسامي بها ليزاولها بصورة أجمل أو الانتكاس بها إلى حالات هستيرية تنفس عن غليانها.

والعقل بهذا المعنى خادم للبهيمية ساقط إلى درك اللامعقول ومكرس لإشباع نزواته.

والإحساس بالذنب والتوبة والندم هي بهذا المعنى عقد نفسية وأمراض يلزم التخلص منها.. وقد استخرج فرويد وأتباعه تلك النظريات من دفتر مرضى الهستريا والنورستانيا والملاخوليا ثم عمومها على الأصحاء والأسوياء.. وجعلوا منها قانوناً لا يتخلف.

وما فعله علماء النفس المتأخرون بعد فرويد كان أسوأ.. لقد أخرجوا الإنسان من بيئته الطبيعية وأدخلوه المعمل فيما يعرف الآن بعلم النفس التجريبي.

وبهذا كذبوا على الناس كذبة أخرى لأن النفس بطبيعتها ذات كلية ولا يمكن

تحويلها إلى موضوع أو تشريحها تحت المجهر لأنها بتشريحها تصبح شيئاً آخر غير النفس الحية المطلوب فهمها.. والنفس بطبيعتها تتفلت وتستخفي وتستعصي على التجريب.. لأن النفس كل لا يقبل التجزئة وواحد لا يقبل القسمة.

وعلم النفس الحالي هو علم نفس مرضى لأنه يركز على العيوب والأمراض والآفات والعلل ويفتش في الانحرافات والتشوهات ولا يقدم لنا شيئاً إيجابياً عن النفس السوية الصحيحة.

وأي علم نفس هذا الذي يرى أن إشباع الشهوات هو المنبع الوحيد للسلوك وأن عقدة أوديب (عشق الولد لأمه) وعقدة الكترا (عشق البنت لأبيها) هما المرجع الرئيسي الذي يفسر جميع التصرفات.. وأن التوبة والندم والصبر على المكاره وقمع الشهوات أمراض ومظاهر للكبت.

وما قدمته هذه المدرسة كأساليب للعلاج كانت كلها أنواعاً من المسكنات.. العلاج بالتنويم المغنطيسي.. العلاج بالإيحاء.. العلاج بالإفشاء.. العلاج بالتنفيس.. العلاج باللعب.. العلاج بالفن.. العلاج بالاستغراق في عمل آلى.. كانت كلها أشبه بعلاج السرطان بالمراهم والمهدئات.. لأنها لم تفكر في أن تغير من النفس شيئاً.. وإنما قبلت وجود الدمل النفسي على حالة.. ثم قالت للمريض.. أصرخ أو غن أو أرقص لتنفس عن آلامك.

أما الموقف الإسلامي من النفس وأمراضها فكان مختلفاً بالكلية فهو يبدأ بالإنسان من موقف حرية فلا جبرية ولا حتمية في الإسلام والنفس خلقها الله حرة تختار خيرها وشرها والله يقول للشيطان:

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾(الحجر:٤٢).

حتى الشيطان لا يستطيع أن يقهر النفس على اختيار لا ترضاه.

والمرضى النفسي ليس قدراً.. والسلوكية الشاذة ليست قضاء محتوماً.. وإنما النفس قابلة للإصلاح والتبديل والتغيير.. والمنهج الإسلامي في إصلاح النفس يفعل هذا على

مراحل.. أولا يبدأ بتخلية النفس من عاداتها المذمومة (وذلك هو تفريغ الإناء مما فيه بالاعتراف بالذنوب والتسليم بالعيوب وإخراجها إلى النور) والمرحلة الثانية هي التوبة وقطع الصلة بالماضي والندم على ما فات ومراقبة النفس فيما يستجد من أمور ومحاسبتها على الفعل والخاطر والمرحلة الثالثة هي مجاهدة الميول النفسية المريضة ومحاربتها بأضدادها، وذلك برياضة النفس الشحيحة على الإنفاق والنفس الشهوانية على التعفف، والنفس الأنانية على الإيثار والبذل، والنفس المتكبرة على التواضع، والنفس المختالة العاشقة لنفسها على الانكسار ورؤية العيوب والنقص فيها.. ولا تنجح تلك المجاهدة دون طلب المدد من الله ودون الصلاة والخشوع والخضوع والفناء في محبة الله ركوعاً وسجوداً في توحيد كامل وذلك بالاسترسال مع الله والانسياب مع الفطرة وإرادة العبد ما يريده الله وكراهيته لما يكرهه.. وهنا تحدث المعجزة.. فيتبدل القلق سكينة والفزع أمناً والنواقص النفسية كمالات.

وذروة العلاج النفسي في الإسلام هي "الذكر" ذكر الله بالقلب واللسان والجوارح والسلوك والعمل واستشعار الحضرة الإلهية على الدوام وطول الوقت وفي كل قول وفعل.

وبالذكر تعود الصلة المقطوعة بين العبد والرب وترتبط النفس بمنبعها.. وتأخذ من أصلها..

فيعود النور ليغمر ظلام النفس.. ويحل العمار محل الخراب والسكينة مكان القلق.

وينظر علم النفس الحديث إلى النسيان باعتباره عرضاً ينتج من عدم الاهتمام أو فرط الاهتمام أو كون الموضوع المطلوب تذكره مؤلماً أو بسبب تقادم العهد أو بسبب كبت الخبرة المنسية في اللاشعور.. والطبيب النفسي يحاول أن يصل إلى هذه الخبرة المنسية بالتحليل أو بالتنويم المغنطيسي أو بملاحظة المريض أثناء تداعى خواطره.

والدين لا ينكر هذه الأسباب ولكنه ينظر نظرة أبعد وأشمل إلى ما وراء تلك الأسباب ويرى النفس في منظور أعم هو علاقتها بالله.. فمن كان قريباً من ربه ذاكراً له على الدوام كانت قدراته دائماً مكتملة وحاضرة وجاهزة لا ينسى شيئاً ولا يغيب عن باله شيء لأنه في دائرة النور.. أما البعد عن الله (بإتباع الشهوات والإغراق في المخالفات)

فيدخل صاحبه في دائرة الظلمة ويجعله من أهل الغفلة ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ ﴾ (الحشر:١٩) وما الأمراض النفسية إلا حالات الغربة والمعاناة التي تعانيها النفس لبعدها عن الله وانقطاعها عن مدده.

والفرق بين نظرة علم النفس ونظرة الدين هو افتقاد علم النفس إلى الشمول والنظرة الكلية وسجنه لنفسه داخل إطار الخبرة المادية واللذة الحسية.. وبهذه النظرة المحدودة ينظر علم النفس إلى الوسواس والخاطر فيرى أنه نفث اللاشعور وأنه حديث النفس إلى نفسها (العقل الباطن والعقل الواعي) ولا يتصور أن تلك النفس يمكن أن تكون لها حياة في محيط آخر خفي وغيبي وأنها يمكن أن تكون محلاً لحديث الملائكة ووسوسة الشياطين أو مخاطبة الرب جل جلاله.

وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى العذاب النفسي فلا يكاد يخرجه من إطار الحرمان من اللذات المادية.. ولا يتصور أن العذاب الدنيوي يمكن أن يكون ابتلاء وامتحاناً من الخالق الذي خلق.. كما يفعل الحداد بالحديد حينما يدخله النار ثم يلقى به في الماء البارد ليزداد صلابة.. أو كما يصهر الصائغ معادنه ليفرز ما فيها من ذهب عما فيها من خبث وشوائب.

ويظل علم النفس سجيناً لهذه المحدودية وهذه الرؤية المادية الحسية بشكل ينتهي به إلى الخطأ في كل أحكامه.. فهو مثل الأعمى الذي اكتفى بأن يمسك الفيل من ذيله ثم راح يصور لنفسه أن هذا الذيل هو الفيل.

ولهذا ينظر علم النفس إلى العمل في نطاق الفعل والحافز دون أن يتعب نفسه في استقصاء موضوع الإخلاص والنية.. ودون أن يتخطى هدف الفعل الظاهر ويسأل نفسه ماذا في نية صاحبه.. هل هي الشهرة عند الناس أو تحصيل المال أو الجاه أو السلطة.. أم هو يعمل خالصاً لوجه الله.

والفرق كبير بين العملين.

والفصل بين العمل والنية هو فصل الشيء عن منبعه.

والأخلاق بالمنظور الدنيوي (براجماتية) وهي مجرد مصالح ومنافع.

ولا يمكن فهم الأخلاق إلا بربطها بنبعها الحقيقي وهو الدين ولم تأتنا الوصايا العشر عن طريق علماء النفس وإنما عن طريق الأنبياء.

والله بحكم أسمائه الحسنى (الرحيم والكريم والرءوف والودود والحليم).. هو الذي يتجلى بهذه الأخلاق على كل من يستحقها فهو المتجلى بالرحمة على الرحيم وبالرأفة على الرءوف وبالكرم على الكريم وبالحلم على الحليم.. كما تعطى الشمس النور والدفء لكل من يتعرض لها.

ويتوسع فرويد توسعاً معيباً في حكاية الجنس والطاقة الجنسية واللذة الجنسية ويتصور إن الرضيع يمتص حلمة ثدى أمه بلذة جنسية (وهو تخريف فالرضيع لم يباشر هذه اللذة بعد بحكم تخلف جميع أجهزته.. وهو بالتالى غير قادر على تذوق هذه اللذة) كما يتصور أن الصبي يحبس البراز في شرجه بلذة جنسية (وهو يستبدل هذه اللذة حينما يكبر بهوايات جمع الأشياء مثل جمع طوابع البريد).

كما يتصور كل ما هو مستدير في الحلم رمزاً لعضو المرأة (مثل الكهف والدائرة والعلبة والحلقة والخاتم) وبالمثل كل ما هو مستطيل رمزاً لقضيب الرجل (مثل العصا والثعبان والمئذنة والبرج والسيف والمظلة) وكل حركة في الحلم هي رمز للعملية الجنسية (كالجرى والتسلق والسباحة وركوب الدراجة).

ثم هو يدمج جميع أنواع الحب حتى حب الوالدين (في كلامه عن عقدة أوديب والكترا) وحب النفس (النرجسية) وحب الله (الآب السماوي الذي نكفر بعبادتنا له عن كراهيتنا لأبينا الأرضي) فيدخل كل هذه الألوان من الحب في الدائرة الجنسية المفرغة وكأنها لعنة تمازج كل فعل وتلوث كل شعور.. فلا براءة في أي شيء.. ولا طهارة في أي خاطر.

ولهذا يختلف الدين عن علم النفس في علاج الأمراض النفسية فيقف علم النفس عند حدود التعبير والتنفيس عن هذه اللعنة بالصراخ أو بالرقص أو باللعب أو بالحب أو

بالجنس أو بالفن أو بالعمل بينما يقول الدين بإمكانية التغيير والتبديل والخروج من ظلمة البهيمية إلى الأنوار الروحية والإشراقات الإلهية وذلك بالمجاهدة والرياضة وقمع الرغبات بأضدادها حتى نصل إلى الوسط العدل وهو صراط الحكمة.

ولهذا ينصح فرويد بشرعة الغابة.

كل وإلا فأنت مأكول.

وهو يختار من الأعمال ما يساعد على التنفيس والتعبير ونحن نشترط الأعمال الصالحة وهو يرى أن ماضي الطفولة حاكم على كل إنسان وموجه لأفعاله ونحن لا نقول بحاكم إلا الله ونقول إننا بفضل الله يمكن أن نخرج من أي حكم ونتخلص من أي حكومة.

وهو يقول بفطرة عدوانية وبغريزة التحطيم والهدم وغريزة الموت كدوافع رئيسية ونحن نقول إن الإنسان فطر حراً مختاراً بين النوازع السالبة والموجبة يختار ما يشاء منذ البداية.

وسبب هذا التخبط الفرويدي هو الإصرار منذ البداية على الرؤية المادية وعلى فهم الإنسان فهماً إلياً حيوانياً حسياً.

وهو عين ما فعله قرينه كارل ماركس حينما تصور التاريخ عربة تحركها المصالح المادية وحدها وأن حركة التاريخ هي دائماً ثمرة الصراع بين طمع الأغنياء وحقد الفقراء إلى آخر ما حكيناه في الكلام عن الصراع الطبقي.

لقد بدأ كلا الرجلين من نقطة الكفر التام بكل شيء فيما عدا ما تباشره الحواس من متاع حاضر وما تراه العين من دنيا شاخصة.

وكان هذا الأفق المحدود والإصرار عليه هو الذي أدى بالاثنين إلى اعتساف الفروض والنتائج والتخريجات.. وهو الذي انتهى بالاثنين إلى تلفيق ما قالاه عن النفس وعن التاريخ.

ولا يرى فرويد من الأحلام إلا هذا الجانب الجنسي الحسي الشهواني.. فالأحلام

كلها إشباع لرغبات مكبوتة وهي تحرس النوم بهذا الإشباع المتجدد وتريح النفس من أشواقها المستعرة وفرويد وأتباعه لا يرون إلا نوعاً واحداً من الأحلام.. هي ما يسميه القرآن.. أضغاث الأحلام ولا يرون إلا جانباً واحداً من النفس.. هي النفس الأمارة.

والقرآن يعلمنا أن هناك نوعاً آخر من الأحلام هو الرؤى التي تأتي النفس.. ومثل ذلك الرؤى الصادقة التي تتحقق بحذافيرها.. ولا مكان لهذه الرؤى عند فرويد، ونظريته تعجز تماماً عن تفسيرها.. مع أنها خبرة عادية عاشها الكثيرون.

وينكر فرويد كما ينكر ماركس أمثال هذه الرؤى لسبب بسيط.. أن رؤية المستقبل قبل حدوثه هي مسألة تهدم الفكر المادي من أساسه، سواء الفرويدي أو الماركسي، لأنها إثبات قاطع وصريح بسبق الفكر على المادة.

فهناك إذن أضغاث ورؤي.

ولكن فرويد لا يرى من الأحلام إلا تلك الأضغاث والهلوسات الشهوانية لأنه لا يرى إلا النفس الأمارة.

ولهذا يرى فرويد السعادة والراحة في إشباع تلك الشهوات بينما يرى الدين أن السعادة والراحة في مخالفتها وقمعها والقبض على زمامها والتسلق عليها عوداً إلى الوطن الأول.. إلى الله.. الذي جاءت النفوس كلها منه.. كما يرى الدين أن النفس الإنسانية منازل.. أدناها النفس الأمارة وأعلى منها النفس اللوامة والنفس الملهمة والنفس المطمئنة والنفس الراضية والنفس المرضية وأعلى الكل النفس الكاملة.

وتاريخ النفس هو صعودها لهذا المعراج من المنازل كدحاً إلى الله في أبديته وخلوده.

والحزن الحق في الإسلام هو فراق النفس لوطنها القدسي وانغماسها في ظلمة الدنيا.

أما الحزن عند فرويد فهو على العكس نتيجة حب الدنيا والحرمان منها.. وبينما نقول نحن إن الحب الأكبر هو حبنا لله.. وأن كل ألوان الحب الأخرى تأتي ضمناً لهذا الحق وفروعاً عنه.. فنحب في الله ونرغب في الله.. نرى فرويد لا يبرح الدائرة الجنسية الشبقية في نظرته للحب.. فهو دائماً شبق ولو تسامى حبه إلى ألوان من الشعر والموسيقى فإنما كلها

غزل بين ذكر وأنثى.

وهذا هو الفرق بين نظرة فرويد المادية المحدودة ونظرة الإسلام الرحبة الشاملة التي تضم بين دفتيها عالم الشهادة وعالم الغيب.

والحكيم هو من أدرك أن كل ما يصيبه داخل في المشيئة الإلهية.

معلوم لها فأراح نفسه من البكاء على ما فات والقلق على ما هو آت.

فهو لا يختال ولا يتكبر ولا يأسى على ما مضى وأدبر.. وتلك هي الصفات العالية للنفس المطمئنة.. وهي نفس غير موجودة بين دفتي كتب فرويد.

وقد تبين فشل الطب النفسي الحديث من التتبع الإحصائي للحالات التي تم علاجها نفسياً فقد اتضح أن معدل شفاء المرضى العصابيين ثابت سواء عولجوا على طريقة فرويد أو عولجوا على طبيقة أدلر أو لم يتلقوا علاجاً على الإطلاق فمن يشفى منهم مثل مريض الأنفلونزا يشفى بالعلاج وبدون العلاج.

كما اتضح أن معظم الأطباء النفسيين مرضى أكثر من مرضاهم وفي حاجة إلى تحليل.

وأخيراً رأينا الطب النفسي ينتكس ويرتد إلى العلاج المادي بالمسكنات والمهدئات والمنومات.. وهو هروب من المشكلة كلها بالنوم عنها.. واعتراف ضمني بأنه لا حل ولا مخرج ولا وسيلة إلى تبديل النفس وتغييرها.

والعجيب أن معظم المدارس النفسية مازالت تأخذ بهذا الرأي.. وهم بذلك يسدون على أنفسهم وعلى المرضى النفسيين أبواب النجاة.

ولكننا نقول بأن التغيير ممكن.. والله يعطينا المثال على أن التبديل ممكن.

وأين عمر بن الخطاب السكير الفاجر في خصومته الغليظ في جاهليته.. من عمر بن الخطاب الشريف العف الزاهد الشديد في الحق بعد إسلامه.

هنا تغير كامل من ليل إلى نهار ومن ظلمة إلى نور.

والأمثلة أكثر من أن تعد.

وكل من جاهد في طريق الله رأي في نفسه أمثال هذه التغيرات تحدث أمام عينيه كالمعجزات.. وعلم النفس الإسلامي يقدم الوسيلة ويقول إن النفس هي صنعة الله.

ردوا الصنعة إلى صانعها.. فهو وحده العليم بها والقادر على إصلاحها.

ماذا بعد الموت؟

في أمريكا عشرة آلاف جمعية روحية، وفي البرازيل ثلاثمائة مجلة روحية، وفي العالم آلاف الكتب والمراجع والنشرات والدوريات تصدر كل يوم تتناول موضوعات غامضة مثل.. الرؤى والأحلام والأطياف والهواتف والبيوت المسكونة وظواهر انتقال الأفكار والجلاء البصري والإدراك خارج الحواس والتنبؤات الصادقة وقدرة العقل على تحريك المادة عن بعد والاتصال بالنفوس بعد موتها عن طريق الوسطاء.. وغيرها وغيرها.

وقضية الخلود بعد الموت قضية مثيرة.. وهي قضية كل عصر وكل زمان.. ولا يفتأ الإنسان يحاول أن يتسمع إلى ما وراء القبر ويحاول أن يفتح نافذة على الغيب أو يلتمس ثقباً يطل من خلاله على عالم الأشباح.. وكلمات الدين لا تشبعه فيحاول أن يعرف أكثر.

واليوم يفتحون الملف القديم لقضية التناسخ.. ولكن بمفهوم جديد وليس بالمفهوم الهندي القديم الذي يقول بعقاب النفوس الإنسانية الشريرة بردها في أجسام حيوانات.

إنهم يرفضون هذا المفهوم.. ويقولون إن النفوس بعد الموت تعود إلى الميلاد في أجساد جديدة لكن إنسانية ليعطيها الله فرصة جديدة لتعاني وتتعلم وتحقق ذواتها وتثوب وتتطهر وتكتمل خلقياً في رحلة تطور ومشوار ربما امتد آلاف السنين قبل أن ترفع إلى عوالم عليا حسب ما تستحق من منازلها.

ويقولون إن كل نفس من نفوسنا لها تاريخ.

ومن أدلتهم على هذه التجسدات السابقة.

أن تمر بمكان لأول مرة فيخيل إليك أنك تعرفه وأنك رأيته من قبل وأن تسمع

صوتاً لأول مرة فيخيل إليك أنك سمعته من قبل وأن تحب شخصاً بدون سبب أو تكره آخر بدون مبرر (وكأنما كان لكما لقاء وتعارف في حياة سابقة) وأن ترى في الأحلام مدنا وأماكن لم تزرها ولم تطأها قدماك وأن يحدث أحياناً أثناء التنويم المغنطيسي أن تسمع الوسيط يتكلم لغة أجنبية دون أن يكون قد تعلم منها حرفاً ويتحدث بها بطلاقة عجيبة فإذا رده المنوم إلى تذكر ما قبل مولده حكى عن حياته في ذلك البلد الأجنبي وكيف ولد من أب وأم يابانية في طوكيو في شارع كذا في البيت رقم كذا تحت اسم كذا.. ويحدث بالتحقيق والاستقصاء أن تتضح أن تلك البيانات صحيحة.

ثم ما يلاحظ من سلوك الأطفال وما نرى من أن سلوكهم هو أبعد ما يكون عن البراءة والطهارة التي تروى عنهم.. ففيهم الخبث والمكر والكذب والملق والأنانية وهناك الطفل الذي يعض على حلمة ثدي أمه في قسوة وهناك الآخر الحنون الذي يربت عليها في لطف.. وذلك منذ اليوم الأول وقبل أن يتلقى أحدهما أي مؤثر من البيئة. فمن أين جاء الأول بكل هذه الشخصية العدوانية ومن أين جاء الثاني بكل ذلك الحنان وهما بعد في الساعة الأولى من حياتهما.

وكم رأينا من عباقرة ولدوا من آباء خاملين، وكم رأينا من أبطال شجعان ولدوا من آباء جبناء رعاديد.. وأين نوح من ابنه الكافر وأين إبراهيم النبي من أبيه عابد الأصنام.

إن البيئة لا تصنع شيئاً من حقيقة الطفل ولا الوراثة تعطيه سوى مجرد إطار لشخصيته أما سره وخيره وشره وحقيقته فيأتي بها من الغيب من تراكم أفعاله في حيوات سابقة.

وإنما تكون وراثة الإنسان الحقيقية من نفسه ويأتي طبعه من تراكم اختياراته السابقة في حيواته المتكررة التي تحولت إلى عادات من كثرة تواترها.

ويتصور أصحاب هذه الفكرة أن كل النفوس متساوية وأنها جميعاً تبدأ ساذجة جاهلة وكل الفارق أن بعضها يطول مشواره ولكنها جميعاً واصلة وجميعها صائرة إلى الجنة ولهذا ينكرون القيامة الكبرى والحشر الجمعي كما ينكرون فكرة الجحيم اكتفاء بأن الله

يعاقب النفوس بردها إلى التجسد الدنيوي مرة بعد مرة لتعاني ثمرة خطاياها حتى تتطهر وتتوب وتصبح مستحقة للجنة الأبدية والميراث السماوي.

ولا يوجد كلام أشد خطأ من هذا الكلام.. فالواقع برمته ينفي تماماً أي قول بالمساواة بين النفوس والكون كله مبنى على أساس التفاضل والتمايز بين المخلوقات، حتى في مملكة النبات تتفاضل الرتب، حتى في الصنف الواحد، فنجد في البرتقال أنواع السكري والبلدي والصيفي، وفي العنب نجد البناتي والفيومي وجاناكليس، وفي القطن نجد طويل التيلة وقصير التيلة وجيزة٧، وفي العناكب نجد مائة ألف صنف لا يشبه الواحد منها الآخر وفي الزهور خمسائة ألف نوع لا تشبه زهرة الأخرى وفي الأسماك والأحياء البحرية تصانيف أكثر.

وفي النفوس البشرية أعجوبة الأعاجيب في عالم الخلق لا يتساوى اثنان ولا تتشابه بصمتان، فالكلام عن المساواة في المراتب والمنازل والمصائر هو محض هذيان.

وبشهادة خالق النفوس أن أكثرها هالك.

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(يس:٧).

والأمر المشاهد بالفعل أن أكثر النفوس تظل على إصرارها فلا تتعظ ولا تعتبر وتظل تعاود شرورها مرة بعد مرة برغم وعدها لربها بالإقلاع والتوبة كل مرة.

وفي إبليس نجد نموذجاً عجيباً من الإصرار على المخالفة فهذا مخلوق أمهله ربه ليعيش دون موت من مبدأ آدم إلى قيام الساعة وهي مدة بالتقدير الزمني أكثر من عشرة ملايين سنة (عمر البشرية منذ آدم) وهو ما يزال قائماً على الغواية والإفساد لم يتطور ولم يتكامل ولم يتظهر ولم يرجع عن إفساده قيد أنملة.

بل ماذا فعل هتلر وستالين ونيرون كإليجولا.

إن هتلر وحده كان مسئولاً عن قتل عشرين مليوناً من الأنفس، ومثله ستالين في الحرب العالمية الثانية وما بعدها.

أيرون أن من العدالة أن ترد هذه النفوس إلى تجسدات دنيوية ثانية لتقتل أربعين

مليوناً أخرى؟.

ومن يكون أولى بالرحمة في نظر العناية الإلهية.. أن يرد الله هذه النفوس رأفة بها لتأخذ فرصة أخرى في القتل والذبح أم أن تكون تلك الملايين من ضحاياها هي الأولى بالرحمة فلا يردها وإنما يؤجلها ليوم الفصل لأنها استوفت من الشر غايته؟

إن القول بأن النفوس تستوى في خيرها وشرها وأنها مستحقة جميعها للجنة وللميراث السماوى بعد طول المشوار هو قول ساذج فإن ما بين النفوس من التفاوت أكبر مما بين فلك وفلك.

ولهذا يقول ربنا عن التفاضل بين النفوس وعن تمايز درجاتها يوم القيامة:

﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾(الإسراء:٢١).

أي أن ما نعرف من التمايز الطبقي في الدنيا لا يساوى شيئاً إلى جوار التفاوت في الدرجات في الآخرة.

وهو تفاوت عادل بحكم تفاوت الحقائق وتفاوت المراتب.

فهناك الملك وهناك الشيطان وهناك الإنسان الذي جاوز في خيره رتبه الملك كما جاوز في شره رتبة الشيطان.. والثواب والعقاب بهذه الصورة التي يحكونها بالرجعة إلى الأجساد مرة بعد مرة.. لا يشكل ثواباً ولا عقاباً، لأن الإنسان يأتي كل مرة ناسياً تماماً لحياته السالفة فحلقة السبب والنتيجة مبتورة.. وإنما هي مجرد تعداد للفرص وللإمكانيات لا أكثر إن صحت مزاعم العودة للتجسد وذلك حتى يحق القول في النهاية في ذلك المشهد الجمعي وذلك الحشر الهائل لجميع الخلائق وهو المشهد الذي تهتك فيه الأستار وتنكشف الخبايا وتفتضح الخفايا..

وذلك هو النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون.

وذلك هو يوم الحاقة والصاخة والغاشية والقارعة والراجفة والزلزلة والساعة ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم التغابن (يوم يشعر كل إنسان أنه ظلم نفسه).

وهو اليوم الذي يقتضيه الجلال الإلهي.. وتقتضيه العظمة والقدرة والهيمنة والعدل النهائي الفاصل والكامل..

وشهادة الأرواح المراسلة التي حكى عنها الزميل الدكتور رؤوف عبيد في كتابه (العودة إلى التجسد).. أمثال سلفر بيرش وهوايت رأى وهوايت ايجل وغيرها لا يصح أن تقوم لها حجة أمام الروح الأمين جبريل.. وأمثال تلك الأرواح هي بشهادة الدكتور عبيد أكثرها هازل وكاذب ويروى أوهاماً وأضاليل.. وهي نفوس مثل كل النفوس يجوز عليها الخطأ.

وعلم الأرواح هو علم يؤخذ منه ويرد وهو لا يخلو من التخليط ولا يصح أن ينظر إليه بأنه صدق كله.. وهو في أحسن الأحوال مجرد مناسبة للتأمل والتفكير.

وأكبر خلط يقع في هذا العلم هو الخلط بين كلمة نفس وكلمة روح..

وكل ما يذكر في هذا العلم هو عن النفس وليس عن الروح وإذا صح مبدأ الرد إلى الأحياء فإنما النفس هي التي ترد وهي التي تعاني لتتطهر وتتكامل.. أما الروح فهي مبدأ إلهي قدسي لا يجوز الكلام عنها بأنها تعاني أو تتطهر أو تتكامل، فلا نقص بها لكي تتكامل ولا رجس فيها لكي تتطهر.

والروح هي المبدأ الإلهي الذي به تحيا النفس ويحيا الجسد فهي سر الحياة في النفس وسر الحياة في الجسد وهي واحدة لا تختلف في أي إنسان عن آخر بحيث لا يجوز أن نقول روح فلان.. وروح علان.. وإنما الصواب أن نقول نفس فلان ونفس علان فهي التي تختلف من واحد لآخر..

وإذا صحت ظواهر حضور الأرواح.. فليست الأرواح هي التي تحضر بل النفوس، ومن هذه النفوس من يكون من الجن أو من البشر المنتقل، أما الأرواح فهي متعلق الحياة في كل حي وهي مبدأ إلهي لا نعلم عنه شيئاً.. وهي لا تحضر ولا تغيب.. وهي ليست فلاناً أو غير فلان.

وكبير الملائكة جبريل هو الوحيد الذي أطلق عليه اسم الروح، وهو الوحيد الذي

يمكن النظر إليه على أنه روح محضة، ولهذا لا يقول إلا الحق ولا ينطق إلا بالصدق.. أما باقي النفوس فيجوز عليها الخطأ ولا تجوز تسميتها إلا بالنفوس.. ولهذا ينسب الله الروح إلى نفسه فيقول: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾(الحجر:٢٩) وينسب النفس إلى صاحبها فيقول.. ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾(المائدة:٣٠). لأن الروح لله أما النفس فلصاحبها.

ولأن النفوس تتفاوت ولأن مرتبها تتفاوت، فيلزم أن تتفاوت مصائرها وتلزم قيامه شاملة (غير العودة الفردية للتجسد) يجسد فيها الله النفوس ويحشرها ليوم الجمع الذي يجمع فيه الناس لحساب ختامي يطلع فيه كل نفس على كتاب أعمالها ويشهدها على سجل أفعالها في كافة تجسداتها السالفة

ويحق القول فيه بالجنة خلوداً أو بالنار أبداً بعد هذا التمحيص الأزلى للنفوس بهذا العديد اللانهائي من الفرص.

والذين يستبشعون حكم الله بالنار الأزلية ويرن في هذا الحكم ما يناقض الرحمة الإلهية لا يعلمون أن الله سوف يختار للنار نفوساً نارية هي في ذواتها شعلات من الحقد والغل.. والنار ستكون هي البيئة الطبيعية لتلك النفوس والمكان المناسب لحقيقتها.. فأين يمكن أن توضع مثل تلك الشعلات النارية إلا في نار.

ثم ألا يتحدث القرآن عن نزلاء تلك النار فيقول: إنهم يتحادثون ويتخاصمون ويتلاعبون ويأكلون ويشربون.. ويقول لنا: إن في تلك النار شجرة.. تخرج في أصل الجحيم.. وأن فيها ماء.

فهي إذن نار مختلفة عن نارنا وعلاقة الأجسام بها علاقة مختلفة.. وهي غيب.. وحقيقتها غيب.. ولا نستطيع أن نؤسس عليها حكماً.

ويقول المعترضون.. إذا كانت النفس الواحدة تعود إلى الحياة أكثر من مرة لتعيش أكثر من شخصية وأكثر من دور.. فأي من تلك الشخصيات سوف يبعث ويحاسب، وأي منها سوف يعتبر هو النفس.

ويجيب أصحابنا بأن النفس هي الذات العميقة وراء كل تلك الشخصيات وهي خارج الزمان والمكان.. وما حياتنا في عالم الزمان والمكان إلا شخصيات وأدوار.. وما تلك الشخصيات إلا كلقطات كاميرا من زوايا متعددة تؤلف في مجموعها ملامح تلك الذات الواحدة العميقة.. وما تلك الأدوار وتلك الشخصيات إلا سجل أعمال ودفتر يوميات واعترافات بخط اليد لتلك الذات الواحدة العميقة.. وهي التي سوف تبعث.. وهي التي سوف تحاسب.

وسيؤسس الحساب في النهاية على (الدوسيه) الكامل وليس على صفحة واحدة أو دور واحد أو شخصية واحدة من السجل.

ويقول المعترضون.. لقد بدأ الخلق بواحد هو آدم.. فمن أين جاءت الكثرة إذا صحت مزاعم القائلين بالتناسخ والحوار بين الجانبين يطول والموضوع المحوري الذي يظل يدور حوله الجدل هو مفهوم العدل الإلهي.

ولكن ماذا يقول القرآن.

إن بالقرآن آيات صريحة تقول بتعدد الحيوات.

***

اللغز

الحقيقة أكثر إدهاشاً من السحر والخيال والمعجزة.. إنها هي نفسها المعجزة..

إن خروجي من بطن التمساح حياً.. وابتلاعي سكينا.. وإخراجي للشمس من كمي.. ليست معجزات.. إنها بهلوانيات وخوارق للنظام.. والمعجزة الحقيقية لا تكون في خرق النظام.. وإنما المعجزة الحقيقية هي في إحلال النظام.

إن شروق الشمس في الشرق كل يوم ومنذ ملايين السنين ودورانها في فلك واحد من الشرق إلى الغرب في دقة ونظام أكثر إعجازاً من خروجها من كمي مرة وخروجها من تحت إبطي مرة أخرى..

إن معجزة الكون في انضباطه بقوانين محكمة دقيقة..

إن معجزته هي في حلول النظام والترتيب في كتلته المهوشة العمياء من المادة وانتظامها في تواليف وتراكيب هندسية جميلة.. إن الحاوي الذي يمزق المنديل إلى عشرات القصاصات ثم يعيده إلى صورته الأولى أمام عينيك قد يدهشك.. ولكن الحياة تقدم كل يوم في بساطه وتواضع ما هو أكثر إعجازاً من هذه اللعبة.

إن الإسفنج الذي تمزقه الدوامات البحرية، والأسماك المتوحشة ألف قطعة وقطعة.. ما تلبث كل قطعة فيه أن تسبح مع الماء وتنمو إسفنجاً جديداً كاملاً.

وأنت لن تستطيع أن تتصور إلى أي مدى يستطيع حيوان الإسفنج أن يتحمل التمزق.. ولكن البروفسور ويلسون.. أستاذ علم الحيوان قام بإجراء تجربة بديعة.. مزق فيها الإسفنج فتافيت صغيرة بإبرة ثم طرقه بشدة بمطرقة ثم طحنه وهرسه وعصره في قماش دقيق الثقوب.. ثقوبه أدق من ثقوب المنخل.. ومن النخالة التي سقطت بعد هذا التمزق والهرس والطحن الرهيب استطاع الإسفنج أن يتخلق من جديد.. من كل نقطة.. ومن كل ذرة.. وينمو إلى صورته السوية.. وكأن لا شيء حدث..

هذه حقيقة ولكنها في ذات الوقت معجزة أكثر إعجازاً من سحر الساحر الذي مزق المنديل ألف قطعة ثم إعادة منديلاً من جديد.

وقد كنت دائماً أشعر بأن في طبيعة الحياة على بساطتها سراً عميقاً ولغزاً معجزاً.. يستحق التأمل الطويل والبحث المتصل.

كانت الحياة دائماً تشغلني.

هذه القدرة الخارقة في الحياة على أن تعبئ نفسها وتحارب قوى التمزق وتحافظ على تماسكها ووحدتها في مواجهة ظروف تبعثرها وتشتتها في كل لحظة.. هذه القدرة دائماً تدلني على أن جوهر الحياة واحد بالرغم من تعدد الكائنات الحية وتنوعها.. جوهر واحد لا يقبل التقسيم ولا التجزئة.. جوهر مبثوث في كل جزء من كل بضعة بروتوبلازم.. بحيث يصبح كل جزء قادراً على أن يصبح كاملاً.

إن السكين التي قطعت الإسفنج لم تستطع أن تقطع جوهر الحياة فيه، لأن الحياة شيء بسيط كالصفة منبثة في كل الأجزاء الحية.. شيء لا يقبل القسمة.

وما حدث في الإسفنج يحدث في كثير من النباتات.. كثير من النباتات تنمو بالتقليم.. أي قلامة تقطع منها وتزرع.. وتنمو وتستحدث لها بنية جديدة وتعيد تخلق كل الأجزاء التي تنقصها.. وفي هذا ما يدل على أن كل جزء من النبات يحتوى بطريقة ما على كل تفاصيل النبات مطبوعة في باطنه تماماً كما يحتوى الجنين على صورة الإنسان بكامل أعضائه باطنه في خلاياه.

إذا قطعت قلامة من شجرة صفصاف وزرعتها، فإنها ما تلبث أن تنمو شجرة كاملة.. يخرج الجذر.. من طرف القلامة السفلي وتخرج الفروع من الطرف العلوي.. وإذا قلبت القلامة عإليها سافلها.. خرجت الجذور من تحت والفروع من فوق.. وهذا يدل على أن كل نقطة في نسيج القلامة فيها إمكانية النمو إلى جذور وإمكانية النمو إلى فروع في نفس الوقت.. والنبات يختار حسب وضعه.. الجزء الذي يسفل تخرج منه الجذور والذي

يعلو تخرج منه الفروع.

وهذا يدل على أن جوهر الحياة جامع لكل الإمكانيات.. إمكانيات الفروع وإمكانيات الجذور في نفس الوقت وأنه لا يقبل التجزئة.. وأنك مهما جزأت النسيج الحي سيظل كل جزء جامعاً في وحدته لكل إمكانيات المخلوق الحي..

ولهذا السبب كانت الحياة في مستوياتها الدنيا غير فانية..

كانت الميكروبات لا تموت.. كانت حينما تبلغ غاية النضج.. تنقسم، فيصبح كل قسم قادراً على النمو والنضج بذاته.. ثم يعود، فينقسم.. فيصبح الواحد اثنين ثم أربعة ثم ثمانية ثم ستة عشر.. إلخ.. دون أن تنطفي الحياة بشيخوخة أحدها.

ولم تظهر الشيخوخة والموت إلا بظهور الأنواع الراقية المعقدة من الحيوان والنبات وبظهور الخلايا الجنسية المعقدة المتخصصة في التكاثر ونقل الحياة من جيل إلى جيل.

الموت كان ضريبة التخصص.. تخصص خلايا بعينها في نقل الحياة.. وأصبح دور الكائن الحي ينتهي عند تكوين هذه الخلايا الجنسية ونقلها بالتلاقح والتزاوج حيث يتم بذلك إنجاب أجيال جديدة.. ثم يموت وتنتهي حياته.

ولكن القدرة على التجدد والحياة كانت من قبل هذا التخصص منبثة في النسيج الحي كله.

ما الحياة؟

وما سرها؟

من الذي علم الكتكوت أن يكسر البيضة عند أضعف أجزائها ويخرج.

من الذي علم الطيور الهجرة عبر البحار والصحاري إلى حيث تجد الغذاء الأوفر والجو الأحسن وإلى حيث تتلاقح وتتوالد.. ومن الذي يسدد خطاها طوال هذه الرحلة عبر ألوف الأميال، فلا تضل ولا تتوه.

من الذي علم دودة القز أن تنسج من ثوبها مرة بعد آخري.. ثـم تنزوي في ركـن لتبني لنفسها شرنقة من حرير تنام فيها ليالي طويلة مثل أهل الكهف ثم تخرج منها فراشة بيضاء جميلة.

هذا الانتقال المنظم الدقيق من نمط من الخلية إلى نمط آخر..

وهذا التطور من دودة إلى حشرة والذي تتعاون فيه ملايين الخلايا في تلقائية يحدث بلا معلم.. لأن المعلم هو فطرة إرشادية مغروسة في المادة الحية بطريقة لا يعرفها أحد.. إن قصة حياتها مكتوبة بشفرة بروتوبلازمية في مادة الخلايا.

من الذي علم أبو ذنيبة كيف يصنع لنفسه ذنباً حينما تقطع لـه ذنبـه.. لا احـد.. إن العلم باطن في خلاياه.. كل خلية تعرف دورها معرفة تلقائية وتؤديه.

وبالمثل ما يحدث لنا حينما نجرح.. فتلتئم جروحنا من تلقاء نفسها.. وحينما تجرح الأشجار، فتلتئم بنسيج من الفلين يملأ ما بين شفرات جروحها.

وبالمثل ما يحدث لنا .. بدون جراح.. وبدون أمراض. حينما يحقق لنا جسمنا بمعجزاته الداخلية درجة حرارة ثابتة ف الحر وفي البرد.. ويحتفظ لنا بوزن ثابت في ظروف مختلفة عن الجوع والشبع.. ويحتفظ بوحدته وسلامته في مواجهة جيوش جرارة من الميكروبات تعمل ليل نهار على تفكيكه وتفتيته وهضمه وأكله..

هذا التوازن الدقيق الذي يتحقق بفاعلية مستمرة من الداخل وحركة دائبة لتصحيح كل خطأ هو الذي يثير التفكير..

إن الحياة تبدو كراقص على حبل مشدود يلتزم منهجاً لتقويم خطواته في كل لحظة.

وهذا هو نفس ما يحدث في داخل الخلايا الحية.. في داخل الخلايا الحية تقويم ذاتي ومنهج تخليقي ونشدان مستمر لهدف مرسوم من الأصل.

نمو قلامة الصفصاف إلى شجرة صفصاف في إصرار يدل على أن برنامج النماء كله والمنهج بكامله كان مرسوماً في خلايا القلامة الصغيرة.

كانت في هذه الخلايا نزعة أصلية واستهداف فطري نحو التكامل والتصور في صورة كاملة تحاكي الأصل وتفوقه..

كانت فيها فطرة إرشادية قادت حركتها خطوة خطوة في طريق النمو المتشعب المعقد.

وهي حركة ليست بالحركة السهلة ولا بالحركة المأمونة وإنما هي كحركة البهلوان الذي يمشى على حبل مشدود.. حركة تهددها المخاطر.. إن القلامة الصغيرة نمت في مواجهة العواصف والحر والبرد والجفاف وعدوان الطفيفيات وحافظت على وحدتها وسلامتها وانزانها وكيانها طوال هذا النمو البطئ خطوة خطوة.وكل هذه الفاعليات التي تعطي للمادة النظام والسلامة..

والقانون.. هي الحياة.

الحياة هي التي جعلت المادة المهوشة.. ذات صورة.. وذات شكل.. وذات نظام.. وذات قانون.

وبدون الحياة تعود المادة فتنفرط وتحلل من هياكلها الجميلة المصورة إلى تراب.

الجسد الحي الجميل المتناسق الرشيق الذي يتصرف بنظام ويفرض على الدنيا حوله نظامه وقانونه ينهدم بالموت ويتحلل وينفرط إلى تراب.

والتفسير العلمي للحياة بأنها نشاط كيماوي.. تفسير غير كاف.. لأن الجسم الميت يحتوى على نفس المواد الكيماوية التي في الجسم الحي.. والتراب يحتوى على نفس المقادير من الحديد والنحاس والكربون.

والقول إن الرغبة الجنسية يحث عليها هرمون التستوستيرون لا يفسر لنا تلك الرغبة الجنسية.. لأننا سنقول: وما هي الفاعلية التي صنعت التستوستيرون في الجسم..؟!

وبالمثل حينما يقول لنا عالم النبات: إن حركة عباد الشمس نحو الشمس ينظمها هرمون "الأوكسين".. لن نعتبر المشكلة قد حلت.. وإنما سوف نسأل.. وما هي الفاعلية

التي صنعت هذه المادة المثيرة التي تضبط كمياتها في نسيج النبات؟!

إن التركيب الكيماوي للخلية لا يكشف لنا سر حياتها.. لأن الحياة ليست مجرد منظمة جامدة مثل البيت أو المصنع وإنما هي منظمة فيها قدرة على تكرار نفسها والتفوق على نفسها.. وفيها فطرة إرشادية تقودها من الداخل.. فطرة مبثوثة في نسيجها تجدد ما يتلف منها وتستحدث ما يضيع.

واللغز في هذه البصيرة المطوية في تضاعيف المادة.. وليس في تركيب المادة نفسه.

إن المشكلة تحتاج إلى تفكير أكثر.

****

الشجرة المحرمة

إننا نولد صغاراً، ثم ننمو مع العمر حتى نصبح شباباً ثم نكبر، ثم يدب فينا الهرم وتدركنا الشيخوخة ونموت.. هذا حالنا وحال ما نرى حولنا من الأحياء.. دورة حتمية تبدأ نامية رابحة يكللها النجاح ثم تنتهي خاسرة فاشلة ثم يختم عليها الموت بخاتمه الأزلي.

ولكن الحياة حينما بدأت على الأرض منذ ثلاثة آلاف مليون عام.. لم يكن هذا شأنها.. لقد بدأت بمخلوق.. هو في الحقيقة مجرد خلية واحدة تسبح في المستنقعات ولم يعرف هذا المخلوق الموت كما نعرفه.

كان الموت لا يدركه إلا بحادثة خارجية.. يجف المستنقع أو يلتهمه مخلوق آخر أكبر منه أو تنزل عليه صاعقة. أما أن يموت كما نموت بلا حادث وبرغم وفرة الطعام ورخاء الظروف في أخريات العمر.. أن يدب فيه الموت من داخله فيشيخ مثلنا.. لم يكن هذا يحدث .. كان مسلحاً ضد هذا الموت الخبيث من الداخل.. كانت دورة حياته غريبة.. وما يحدث له مع تقدم العمر عكس ما يحدث لنا.. فهو ينمو وينمو ويكبر لا ليسلمه الكبر إلى شيخوخة وإنما ليسلمه إلى طفولة جديدة، فينقسم عندما يبلغ غاية نموه كما تنقسم العصا نصفين ويصبح مخلوقين كلا منهما طفل في أول مراحل نموه من جديد.. ثم يعود الاثنان، فيصبحان أربعة ثم ثمانية ثم ستة عشر ثم اثنين وثلاثين ثم أربعة وستين في أطراد حسابي بلا موت.. ولا فقد إلا بحادث.. (ومازال هذا حال الميكروبات في انقسامها وتكاثرها إلى الآن).

لا موت..

لا ذكر ولا أنثى.. ولا تزاوج.. ولا تلاقح.. ولا خلايا تناسلية وإنما الخلية الجسمية نفسها تصبح خليتين بدون مساعدة من أحد.

وكانت هذه الخلية الواحدة مسلحة حتى ضد الحوادث.. وما أكثر ما كانت تتجر ثم (تحيط نفسها بكيس سميك تنام داخله) وتتحول إلى جرثومة لا يؤثر فيها الجفاف ولا

الحر ولا البرد.. وقد عثر على جراثيم تحت جليد القطب الشمالى نائمة في أكياسها منذ أكثر من ١٣ ألف عام.. وفي تراب منجم عثر أخيراً على جراثيم يعود تاريخها إلى أكثر من مليون عام.. وقد أمكن زرع هذه الجراثيم من جديد وإعادتها إلى الحياة.

إلى هذه الدرجة استطاعت الخلية الأولى أن تهزم الموت..

وقد رأينا هذه الخلية تقوم بجميع وظائف الحياة.. جزء منها يتحور على شكل سوط أو أهداب ويقوم بالحركة وجزء آخر ويتحور على شكل تجويف معوي ويقوم بالتقاط الطعام وهضمه، وفقاعة داخلية وسط السائل الخلوي الحي تقوم بدور الكلية، فتطرد الماء الزائد عن الحاجة.

وظلت هذه التحورات ترتقي في الشكل والقدرة مع احتفاظ الخلية طول الوقت بوحدويتها وحياتها المستمرة في عزلة عن الآخرين.

ثم بدأت الخلايا المتفرقة تتجمع في شلل وفرق وعائلات.. ثم بدأت هذه الشلل ترتبط وتتلاصق وتتحول إلى نسيج متعدد الخلايا..

ثم بدأت ظاهرة جديدة تظهر في هذا الكائن المتعدد الخلايا هي ظاهرة التخصص. مجموعة خلايا تختص بالحركة ومجموعة خلايا تختص بالإخراج ومجموعة خلايا تختص بالهضم.

ثم حدثت الخطيئة الكبرى حينما طور الكائن الحي له عضواً خاصاً بالتناسل وخلايا متخصصة في التناسل.. فقد كان معنى هذا أن الكائن نفسه قد أصبح منذ تلك اللحظة كائناً مؤقتاً.. الحاجة إليه مؤقتة..

أصبح مجرد حامل للبذور..

مجرد وسيط يحمل الحيوانات المنوية أو البويضات.. إذا قام بنقلها وغرسها في عملية التلقيح انتهي دوره وأصبح فائضاً عن الحاجة وضيفاً ثقيلاً لا لزوم له يأكل ويشرب بدون وظيفة، فقد انتقلت الحياة إلى جيل جديد وحدث التكاثر بالفعل عن طريق الخلايا

التناسلية التي قام بتوصيلها ولم يعد هناك داع لاستمرار وجوده..

منذ هذا التاريخ بدأ الموت يغتال هذه الكائنات المتخصصة الراقية من داخلها، فيصيبها بالشيخوخة والذبول والفناء.

ويحدث أحياناً أن نرى هذا المصير بطريقة درامية، فنشاهد في حشرة مثل "ذبابة مايو" أطوار النمو تستغرق عدة سنوات حتى تصل الحشرة إلى طور البلوغ.. ولا تكاد تبلغ حتى تموت بعد يوم واحد من بلوغها ميتة درامية بعد التلقيح مباشرة (في ليلة زفافها)..

إلى هذه الدرجة تبلغ قسوة الحياة في الاستغناء عن أفرادها بمجرد انتهائهم من وظيفة استمرار النوع.

كان الموت إذن هو ضريبة الجنس، وظهر مع ظهور الذكر والأنثى.. وبدأ مع أول اتصال جنسي.

والسؤال المحير هو: لماذا لجأت الحياة إلى هذه الوسيلة الباهظة المكلفة من التكاثر.. وهي وسيلة كلفتها الموت.. مع أنها كانت تتكاثر بكفاءة.. وكانت تنتشر انتشاراً فعالاً بوسيلتها البدائية الأولى.. الانقسام.

علماء الحياة يقولون لنا عن قسوة الظروف وضراوة البيئة هي التي تطلبت من الكائنات الحية الأولى البحث عن وسيلة جديدة الإنتاج نسل قوى يستطيع أن يصمد ويقاوم.

كان الانقسام يؤدي إلى نسل ضعيف يكرر نفسه بدون إضافات جديدة تذكر والنتيجة أن الموت بالحوادث كان يهدد في هذه الحالة النوع كله بالانقراض.. وما أكثر ما انقرض من أنواع مما نعرف ومما لا نعرف بهذه الطريقة.

وكان الحل هو ابتكار أسلوب شبيه بالتطعيم (هو التكاثر بالتزاوج الجنسي).. وبهذه الطريقة يتكاثر النوع وتنضاف إليه في كل تزاوج إضافات جديدة ويخرج نسل قوى،

وبهذا الحل أمكن إنقاذ النوع من الانقراض والفناء والموت ولكن بثمن هائل هو أن يغدو الموت كتاباً مكتوباً على الأفراد.

أنقذت الحياة الأنواع من الموت ليموت الأفراد الذين أصبحوا مجرد حملة وحفظة وأرشيف للخصائص الوراثية لا أكثر.. يوصلون الحياة في هذه الرسائل الدقيقة التي أسمها الحيوانات المنوية والبويضات.. ثم يموتون بعد أداء دورهم..

لقد أكلت الحياة من الشجرة المحرمة تماماً كما أكل آدم، فأصبح أبناؤها سكان الفناء بعد أن كانوا سكان الجنة الأبدية..

ترى هل هذا هو السبب الباطني العميق الذي جعلنا نعتبر اللذة الجنسية سقوطاً؟؟!

إنها أسقطتنا بالفعل من ذروة الخلود إلى هوة الفناء وجعلت منا وسائل ثانوية لنقل بذور الحياة بعد أن كنا كائنات لا غاية لها سوى ذواتها.

ترى هل يمكن أن ننقذ أنفسنا من هذا الموت المكتوب لو أننا قدمنا للحياة وسيلة أخرى تحفظ بها أنواعها وتتكاثر غير هذا التناسل الجنسي.

ترى هل يستطيع معمل البيولوجي أن يغير التاريخ ويهزم الموت؟

هو مجرد سؤال.

***

دراكولا

لا أحد منا يجهل دراكولا.. ذلك الرجل الشيطان الذي ينام ميتا في تابوته طوال النهار حتى إذا حن الليل هام على وجهه باحثاً على ضحية آدمية يمتص دمها.. وما يكاد يلمس بأنيابه عنق امرأة حتى تذوب بين ذراعيه لذه وعشقا وتسلم له نفسها يمتص دماءها حتى آخر قطره.. ومن ضحية إلى أخرى يظل ينتقل مرة على هيئة رجل ومرة على شكل خفاش أسود رهيب.. الليل حديقته وملعبه، والنهار عدوه، والشمس عفريته الذي لا يقوى على مواجهته، ما كاد يطلع أول شعاع من أشعة الفجر حتى يعود مهرولاً في فزع إلى تابوته ليرقد في موات وسكون طول النهار بارداً برود الجثة لا ينبض فيه عرق.. لا تعود إليه حياة إلا مع أول خيط من خيوط الظلام ومع أول جرعة جديدة من دماء حية دافئة يمتصها.

هذه الشخصية الأسطورية البشعة التي طالما جلسنا نرتجف ونحن نتابع تحركاتها المرعبة على شاشة السينما.. والدماء تتثلج في عروقنا ونحن نراه في خفة على ضحاياه ونعود فنلتقط أنفاسنا ونحن نراه قد ارتمى جثة باردة في تابوته وكأنه قد تحول إلى قطعة من رخام التابوت.

ونحن نطرق الشارع المبتل بخطواتنا المرتاعة ونتلفت عائدين من السينما إلى بيوتنا.. وعقولنا تتساءل.. هل هذا الشبح البعيد الواقف تحت المصباح هو دراكولا.. هل سيثب على أعناقنا ليمتص دماءنا ونهرول في طريقنا مذعورين.. وما نكاد نلمح خفقات جناحي خفاش هائم في الظلام حتى نقفز من الرعب. إنه دراكولا.

هل يمكن أن يكون ذلك الخفاش دراكولا؟

هل دراكولا شخصية لها وجود.. أم أنها أسطورة؟!

ذلك الميت الحي الذي يعيش آلاف السنين ويتجدد شبابه كل يوم بالدم الذي يمتصه فلا يشيخ ولا يفنى.. ويتكاثر بقدر عدد ضحاياه.. كل ضحية يمتص دمها تتحول بعد موتها هي الأخرى إلى دراكولا.

هذا الشعب الملعون من أبالسة الظلام الذي يدب بين القبور وينشر الخراب حينما حل.. هل يمكن أن يكون له وجود..؟!

إنهم يقولون إن دراكولا أسطورة..

ولكني أقول إن دراكولا موجود.. واسمه الفيروس..

وربما لم يخطر على بال مؤلف الأسطورة أن البطل الذي أبدعه من محض الخيال هو أكبر حقيقة تسكن هذه الأرض.. فلم يكن الفيروس معروفاً حينما ظهرت هذه الأسطورة الشعبية القديمة..

ولكن الفنان في نظري له وسائله الخفية في الإدراك، فهو لا يكتشف الأشياء بالمجهر والتلسكوب ولا بالعقل ولا بالحساب ولا بالمنطق وإنما هو يرى الأشياء بعين داخلية.. بحاسة سادسة غير البصر.. هي البصيرة..

ومؤلف دراكولا لم يكن يهذي.. ولم يكن ما تخيله محض هذيان، فالعالم الحديث أثبت وجود دراكولا..

ذلك الميت الحي.. الكائن اللغز الذي اسمه "الفيروس".

كل الفاروق بين الأسطورة والحقيقة أن دراكولا الفيروس كائن صغير الحجم جداً.. أدق من جميع الميكروبات المعروفة.. ولا يمكن رؤيته بالعين المجردة.. ولا بالميكروسكوب.. ولا يمكن فصله من السوائل التي تحتوى عليه بالترشيح، فهو ينفذ من أدق المرشحات إنه كالريح كالخلاء.

ولكنه يقتل ويصرع الألوف كل يوم.

والإحصاءات الأخيرة تقول لنا إن ٦٠٪ من الأمراض التي تصيبنا سببها فيروس، وهو يصيب النبات كما يصيب الحيوان والإنسان كما يتطفل أحياناً على الميكروب الصغير ويقتله..

الزكام، الأنفلونزا... الجدري، الحصبة، الكلب.. شلل الأطفال.. الصفراء.. الغدة

النكفية.. التهاب المخ.. الالتهاب السحائي.. السرطان.. التراكوما.. كلها أمراض فيروسية ومثلها أكثر منها في الحيوان والنبات.

إنه وحش طليق.. أعداده بالملايين، وهو يلهث خلف الحياة حيثما كانت، وقد ظل مجهول الصورة والشكل حتى اخترع المجهر الإلكتروني منذ سنوات.

وباختراع هذا المجهر الذي تزيد قدرة تكبيره على مائتي ألف مرة أمكن رؤية هذا الوحش لأول مرة..

وكانت نتيجة الرؤية مذهلة.

إن ما ظهر تحت المهجر لم يكن ميكروباً يتحرك كميكروب الدسنتاريا أو الكوليرا أو الملاريا ولم يكن حتى خلية لها صفات الخلايا الحية المعروفة.. وإنما كان عدة بلورات مثل بلورات ملح الطعام.. أو السكر البودرة.. مجرد مادة بروتينية ميتة.. وبتحليلها اتضح أنها البروتين النووي المعروف بالأحرف DNA حامضي الديزوكسي ريبو نيوكليك.. وهي المادة الموجودة بنواة الخلية الحية والمختصة بنسخ النماذج والصفات الوراثية في الخلية.. أنها أشبه بالرونيو أو الروتوجرافور حسب الماكينة التي تحت يده أو قالب الجبس الذي يصيب فيه النحات ما يشاء من النسخ التي يريدها.. أو باترون الترزي الذي يفصل عليه آلاف الفساتين..

ومعروف الآن في علم الوراثة أن كل خلية حية في داخلها باترون خاص بها تفصل عليه الخلايا الجديدة التي تنقسم إليها، وبهذا تحتفظ بطابعها ويحتفظ الكائن الحي بطابعه وشخصيته في أثناء نموه ويورثه لأبنائه بعد موته.

هذا الباترون مصنوع من هذه المادة السحرية.

وهذه المادة بدورها مادة شديدة التعقيد مصنوعة من أكثر من عشرين حامضاً أمينياً متصلة ببعضها اتصال الحروف الأبجدية لتؤلف شفرة خاصة في كل كائن حي..

هذه الشفرة الكيميائية هي كرنية تحقيق الشخصية الخاص بكل كائن.. إنها الباترون الذي يتميز به الكائن كما يتميز الإنسان ببصمة إصبعه.. وهي مادة لها صفة الأمر على

المواد الأخرى، فيمكنها أن تطبع ما تشاء من النسخ على هيئتها..

ويشرح لنا علماء الوراثة الأمر أكثر فيقولون إن كل خلية تحتوى على أصل وصورة. من هذا الباترون أصل من داخل النواة مصنوع من الـ DNA وصورة خارج النواة في السائل الخلوي مصنوعة من مادة شبيهة هي RNA (حامض ريبونيوكليك).

وتطبع النسخ الجديدة في الخلية على الصورة على حين يحتفظ بالأصل داخل النواة في أرشيف.

والمذهل في أمر الفيروس.. أنه يتكون دائماً من هاتين المادتين، أحياناً من الواحدة دون الأخرى.. وأحيانا منهما معاً.

أحياناً في صورة بلورات نقية.. وأحياناً في تكوين هندسي بلوري له زوائد مثل إيريال التليفزيون.. وأحياناً تكون البلورات محاطة بكيس دهني أو بروتيني له قرون متعددة.

ولكنها في كل الحالات مجرد مادة كيميائية ميتة ليس لها جسم خلوي ولا تكوين حي.. إنها دراكولا الميت في تابوته.

ولكن ما يكاد هذا الدراكولا الميت يلمس بزوائده وأنيابه خلية حية حتى يتحول إلى شيطان رهيب.

وأول ما يفعله دراكولا الرهيب في لحظة ملامسته للخلية أن يحقن مادة DNA وهي مادة جسمه في داخل الخلية الحية، وبهذا يدخل في قلب الخلية تاركاً زوائده وغلافه في الخارج.

وما يكاد يدخل الخلية حتى يلتبس الأمر عليها..

إنها تواجه لأول مرة شفرة كيميائية جديدة، شفرة آمرة.. معها تعليمات كيميائية مختلفة عن تعليمات كل يوم..

ولمدى دقائق قليلة يخيل للخلية أن هذه الأوامر الكيميائية صادرة من نواتها.. فتبدأ

في تنفيذ هذه الأوامر الجديدة وتبدأ في نسخ آلاف النسخ من الوافد الجديد وفي لحظات يتحول دراكولا إلى ألف دراكولا.

لقد ذاق دراكولا طعم الدم.

وتحول الميت إلى حي..

والخلية المريضة التي تتكاثر بهذه الطريقة ما تلبث أن تنفجر ويخرج منها ألوف من وحدات الفيروس لتصاب بعدها خلية أخرى وأخرى.. ويبدأ الجسم يذوب ويهلك بينما يتحول الفيروس الغازي إلى جيش يطعن في الظلام.

وأحياناً يتسبب الاختلاف الطفيف في الشفرة الكيميائية إلى نمو سرطاني.

فإذا تنبه الجسم في الوقت المناسب إلى الخدعة، فإنه يبدأ في إفراز مواد مضادة.. ويبدأ في إرسال تعليمات كيميائية جديدة يعيد بها التكاثر إلى خطته الطبيعية.

وأمام هذه اليقظة الفجائية لا يجد دراكولا مفراً من الهرب والعودة إلى تابوته.. حيث يرى تحت المجهر الإلكتروني في الرشوحات والأتربة.. مجرد بلورات ميتة كملح الطعام لا حياة فيها ولا حركة ولا تنفس ولا تكاثر ولا إحساس.

ما هو سر ذلك الميت الحي..؟!

وكيف تنبض الحياة في مادة بلا حياة..؟!

إن الأمور بدأت تختلط ولم يعد هناك ذلك الحاجز الصارم بين الحياة واللاحياة.. وبدأنا نكتشف الحياة في المادة الموات.. والموت في الحياة..

لغز من أكبر الألغاز التي تواجه علماء البيولوجيا الآن.

لغز اسمه الفيروس..

وأسميه أنا دراكولا.

النبات اكتشف قنبلته الذرية

إن المشكلة التي تواجهك اليوم هي نفس المشكلة التي واجهت أول كائن حي ظهر على وجه الأرض منذ ثلاثة آلاف مليون سنة..

إنها الغذاء..

وتدبير قوت اليوم..

ونحن لا نأكل لأننا نجوع..

إن الجوع مجرد إشعار.. مجرد إنذار عصبي بأن البطن فرغ.. وسكر الدم في هبوط، ولم يكن عند الكائن الأول (وهو مجرد ميكروب من خلية واحدة) جهاز عصبي يشعره بالجوع وبأن بطنه فرغ.. وهو حتى لم يكن عنده بطن..

وإنما كان يأكل.. كما أننا الآن نأكل لسبب أعمق من الجوع.. ولنعرف السبب لابد أن نعرف أولاً.. ما الحياة..؟!

والحياة بلغة الكيمياء مجموعة تفاعلات..

فك وتركيب وتحليل وإنشاء مواد كيميائية يأخذها الكائن الحي من بيئته ويعيد تخليقها من جديد على صورته.. النبات يأخذ الأملاح والماء والطين من بيئته ثم يسويها على صورته، فإذا هي فروع وأغصان وأزهار وثمار..

الكائن الحي معمل كيميائي متحرك في حالة تبادلات مستمرة مع البيئة حوله يؤثر فيها ويتأثر بها ويقاومها أبداً محتفظاً بشخصيته وهيئته في مواجهة ظروف متغيرة تحاول أن تغيره معها على الدوام..

وفي مواجهة هذه الظروف المضطربة التي تحكمها المصادفات والحوادث العشوائية ينفرد الكائن الحي بأنه طراز فريد له نسق وفيه نظام وله إرادة توجهه تلقائياً إلى الحفاظ على نوعه، فهو يتحرك ليس كحركة القشة في الماء كيفما اتفق وكيفما دفعها التيار ولكنه

يتحرك بحافز داخلي.. بمزاجه.. فهو يسبح ضد التيار.. هو في النبات يصعد إلى فوق ضد الجاذبية.. وفي الطيور يطير في الهواء.. وفي الأسماك يغوص في الماء.. بما يتفق دائماً مع قانونه هو لا أي قانون آخر.. وبينما ينقرض ويتآكل كل شيء حوله.. ينمو هو ويتكاثر ويشتد عوده وينقل صفاته الأحسن إلى الأجيال من بعده.

هذه الخواص في مجموعها اسمها الحياة.

إنها بلغة الفلسفة أشبه بفردية وحرية تظهر وسط عماء الحتمية والإلية المادية ولكن هذه الفردية والحرية التي تظهر بشكل مخلوق وسيلتها الظاهرة مجموعة تفاعلات لا تهدأ.. كل حركة تقابلها عملية كيميائية وكهربائية خاصة تؤدي إليها.. وكل نمو تقابله تركيبات وإنشاءات معملية معقدة..

إن ما يجرى في الحقيقة هو شيء مثل الاحتراق المستمر في فرن متعدد الوظائف وكأي فرن لابد له من وقود، فكل عملية لها تكلفة.. لتضيء بيتك أنت في حاجة إلى كهرباء ولتولد الكهرباء أنت في حاجة إلى قوة بخارية، ولتحصل على القوة البخارية لابد أنك في حاجة إلى توربينات تدور، ولتدير هذه التوربينات أنت في حاجة إلى قوة بخارية ولتحصل على القوة البخارية لابد أن تحرق فحماً.. إنها جميعاً أشكال من الطاقة تتحول الواحد إلى الآخر.. وفي النهاية لابد أن نحرق فحماً.. لابد من وقود لنكلف هذه العمليات.. وبالمثل لابد من غذاء..

الحياة أولاً في حاجة إلى غذاء ليس لتملأ بطنها ولكن لتولد الطاقة.

ولم يكن أمام الخلية الأولى القليلة الحيلة طعام تأكله سوى حساء المستنقعات الذي تسبح فيه، ولم تكن لديها وسيلة لتوليد الطاقة سوى تخمير هذا الحساء وتحليله إلى مواد كحولية بسيطة تنطلق نتيجتها طاقة تافهة تستخدمها في حياتها.

ومرت ملايين السنين والحياة تأكل من هذا المصدر المحدود وشيئاً فشيئاً بدأ المورد ينضب..

وظهر في الأفق شبح مجاعة بدأ يقترب.. وبدأت الحياة تهلك..

وبدأ الموت يحصد أعداد هائلة من الخلايا كل يوم.

وكان لابد من وسيلة أخرى للتغذية وتوليد الطاقة وإشعال فرن الحياة غير هذا التخمير البدائي، ولابد أنه كانت هناك تجارب مستميتة على مدى الملايين من السنين..

تجارب في كل خلية لاكتشاف هذا الشيء.

وكما بدأنا نحن بحرق الخشب ثم اكتشفنا الفحم ثم اكتشفنا البترول ثم اكتشفنا الكهرباء ثم اكتشفنا القنبلة الذرية، كذلك كانت الميكروبات تجرب وهي في سباق مع الموت بحثاً عن وسيلة كيميائية أخرى غير التخمير لتعيش.

ولاشك أنه أمر مضحك أن تتصور ميكروباً يجرب ويحاول الاختراع والاكتشاف ولعل التصور الأكثر معقولية أن الله الذي خلق هذه الخلايا البدائية كان يهديها وكان يأخذها بيدها في هذه المسيرة الأغرب من الخيال وبالتدبير أو بالهدى الإلهي استطاع ميكروب عبقري أن يصنع مادة اسمها الكلوروفيل.

والكلوروفيل مادة عبقرية بالفعل، يكفى أن يسمها شعاع شمس، فينطلق منها تيار من الكهرباء، والسر في ذلك أنها ذات تركيب خاص وفني جداً، فالذرات فيها متصلة ببعضها بطريقة تجعل الكتروناتها مجمعة في شكل سحابة مفككة وحرة نوعاً ما تكفي دفعة طفيفة من شعاع شمس، فتتدفق على شكل تيار متلاحق.

ماذا بقي بعد ذلك؟

سوف تطلع الشمس على الميكروب كما تطلع كل يوم منذ ملايين ملايين السنين..

ولكن هذه المرة سوف يحدث شيء جديد، فالميكروب قد صنع لنفسه مئات من كرات الكلوروفيل الخضراء، وسوف تقتنص هذه الكرات الخضراء ضوء الشمس وتحوله إلى طاقة كهربائية وسوف تقوم الطاقة الكهربائية بكل شيء.. تحلل الماء إلى أكسجين وأيدروجين.. تطلق الأكسجين في الهواء وتثبت الأيدروجين مع ثاني أكسيد الكربون (وما

أكثره في الجو) لتصنيع السكر والنشا.

هذا الاكتشاف الذي اسمه التمثيل الكلوروفيلي بدأ به عصر جديد في الحياة اسمه عصر النباتات الخضراء.. وهي نباتات تتغذي على ضوء الشمس وتخزين هذا الضوء في حبات..

ولكى تعلم إلى أي مدى كان هذا الاكتشاف رهيباً يكفي أن تعرف أن الإحصاءات قدرت كمية الطاقة التي يخزنها النبات سنوياً بهذه الطريقة (بعشرة مليون مليون مليون) "جرام كالوري" أي بما قيمته مائة مليون قنبلة ذرية.

هذا الاكتشاف حدث قبل مجيء الإنسان إلى الأرض، اكتشفته الخلايا النباتية في مخاطراتها إليومية للبحث عن غذاء.. وكان ذلك بهدى خالقها.

ولم يكن هو الاكتشاف الوحيد، فما لبث أن ظهر اكتشاف آخر.. التقطت الخلية الأكسجين المتخلف من عملية التمثيل الكلوروفيلي واكتشفت أنها يمكن أن تحرق به السكر.. وهذا هو ما تفعله الآن وما تفعله كل الحيوانات في عملية التنفس.. نأخذ الأكسجين من الجو (وهو أكسجين متخلف من النبات) ونحرق به السكر في أجسامنا لنحصل على طاقة أعظم تساعدنا على الحركة والقفز والسياحة.

والقصة مازالت مستمرة.. وموصولة الحلقات، فنحن لم نكتف بهذه الحرارة التي نستمدها من التنفس وإنما بدأنا نبحث بطرائقنا الخاصة عن مصادر أخرى للطاقة.. حرقنا الخشب ثم الفحم.. ثم البترول.. ثم أطلقنا البخار.. وولدنا الكهرباء.. وفجرنا الذرة.. والبقية في الطريق.

والفضل الأول لخلية نباتية عبقرية اكتشفت ذات يوم منذ ملايين السنين قنبلة الكوروفيل بهدى إلهي.

تذكر دائماً أن تنظر لأشجار الطريق في احترام، فهي التي تمدك بالأكسجين لتتنفس به كل يوم.

وحينما تقرأ عن عجائب عالم النبات.. وكيف أنه بين أنواع النبات نباتات مفترسة تأكل الحيوان قبل أن يأكلها.. ونباتات طفيلية.. ونباتات ذات بذور مجنحة تطير كالباراشون.. ونباتات تشعر باللمس.. لا تعجب.. فقد عرفت ما هو أعجب من ذلك جميعاً.

عرفت قصة نبات مخترع اخترع قنبلته الذرية.

***

صاحبة الجلالة

منذ ثلاثمائة مليون سنه.. قبل أن يجيء إلى الدنيا شيء أسمه إنسان.. والأرض مازالت على بكارتها غابة لم يشقها محراث.. ولد للحياة حفيد جديد رقيق الجسم اسمه.. الشجرة.

وكان مقدراً لهذا الحفيد أن تكون سلالته المباركة أكثر مصنفات الحيوانات عدداً وعدة.. وأن يكون أذكى من الديناصور العظيم وأوسع حيلة من ثعلب الجبل، وأقدر على مواجهة صعوبات الحياة من ضواري الغاب.

وحينما زحف الثلج وغطى الأرض في العصر الجليدي وحول المحيطات.. ماتت الديناصورات العظيمة وانقرضت الزاحفات الهائلة واحدة بعد أخرى.. وبقيت الحشرة تقاوم، مكومة في الثلج وقد أغمضت عينيها في بيات شتوي طويل لا تأكل ولا تتنفس وأشرقت الشمس ذات يوم لتدفيء الدنيا.

وذاب الجليد..

وخرجت الحشرات بالألوف والملايين من خنادقها.. وكأنها يأجوج ومأجوج.. لتغزو الماء واليابسة والصحاري الجرد والهواء.. بعضها يأكل بعضاً.. وبعضها يتطفل على الحياة الأخرى من نبات وحيوان.. وبعضها يتغذي على الطين وبعضها يأكل الروث.. وبعضها يعيش على ملح المستنقعات وبعضها يمتص الدم.

وأنها لقادرة دائماً على التكيف على أي طعام موجود..

وبيننا اليوم حشرات عجيبة تأكل أنواعاً عجيبة من الأطعمة مثل ذبابة البترول التي تعيش في أحواض البترول.. وذبابة التحنيط التي تعيش على أملاح تحنيط الجثث.. وخنفساء الدائرة الكهربائية التي تعيش على أسلاك الرصاص وجنادب الينابيع الكبريتية الحارة.. والجعارين التي تأكل العظام.

وكل حشرة تتحرك مثل عربة مصفحة تحيط بجسمها الرقيق صفائح من مادة كالصلب اسمها الكيتين تقاوم فعل جميع المهلكات الكيميائية.. وهي تسلح نفسها بحراب وخناجر وأشواك.. وبعضها يسلح نفسه بحويصلة من السم متصلة بإبرة حامية (الزبان) يطعن بها أي عدو يقترب منه فيشله ثم يلتهمه.. وبعضها يتلون بلون البيئة كفرس النبي الأخضر بلون الخضرة أو الجرادة الصفراء بلون الرمال.. وبعضها يلصق على نفسه أوراق الشجر الميتة كما يفعل جندي الصاعقة وهو يزحف.. وبعضها يطلق غازات كريهة ليطرد أعداءه.. وبعضها يحفر لنفسه خنادق ليختبئ.. وبعضها يبني لنفسه قلاعاً حصينة من الطين.. وبعضها يحاكي في هيئته الزنابير اللاسعة بدون أن يكون له زبان ليضحك على مطارديه.

والحشرات تتحمل درجات البرودة القصوى تحت الصفر، فتتجمد ولا تموت كما تتحمل الحرارة العليا كما تعيش تحت الضغط الجوي المنخفض وتحت ضغوط البحر العالية تحت الماء.. وفي الفراغ.. وفي غياب الأكسجين.. وفي وجود الغازات السامة.

وكل حشرة تعيش في أكثر من بيئة، فالبعوضة في مرحلة الدودة والشرنقة تعيش في المستنقعات، وفي مرحلة الحشرة الكاملة تعيش في الحدائق وتتغذي ذكورها على رحيق الزهر وإناثها على دم الإنسان..

والحشرات تسمع وتحس وتشم وترى أحياناً عن طريق قرون الاستشعار أو الوبر الخفيف على جسمها، وبعضها له طبلة أذن.. وبعضها له عيون مركبة..

والمعجزة التي استطاعت بها الحشرات أن تهزم الموت والفناء وضراوة الظروف المهلكة.. هي معجزة النسل.

فحشرة دودة القطن تبيض في اللطعة الواحدة ٤٠٠ بيضة تفقس ٢٨٠ أنثى و٢٠٠ ذكر وكل أنثى تعود فتبيض ٤٠٠ بيضة وبعملية حسابية سوف تكتشف أن الحشرة سوف تتضاعف ثمانين ألف حشرة بهذه الطريقة ثم ١٦ مليونا كل هذا من حشرة واحدة وفي خلال زمن يعد بالأيام..

وذبابة الدروسوفيلا مثلاً تنتج ٢٥ جيلاً في السنة ويبدأ الجيل الأول بمائة بيضة وبعملية حسابية بسيطة يتضح أن العدد النهائي في الجيل الخامس والعشرين يبلغ من العظم بحيث لو تراصت ذبابات الواحدة إلى جوار الأخرى يتكون جسر يوصل من الأرض للشمس.

وأعجب ما في الحشرة ما يسمى بالمعرفة الغريزية، فحشرة أبي دقيق تختار أوراق الكرنب لتبيض عليها مع أنها لا تتغذي على الكرنب ولا تحتاج له وإنما تقودها إلى ذلك معرفة غريزية باطنة، فالبيض سوف يفقس وسوف تخرج ديدان صغيرة لا تأكل سوى الكرنب، فيجب أن تبيض حشرة أبي دقيق على ورق الكرنب ليجد الصغار ما يأكلونه ومع ذلك فحشرة أبي دقيق لا تعرف هذه المسألة معرفة عقلية واعية.

وحتى لو رأت الصغار التي فقس عنها بيضها، فهي لن تعرفها.. ولن تعرف أن هذه الديدان أبناؤها.

إن كل العملية تتم بدون وعي وبإملاء من قوة مجهولة اسمها الغريزة، وزنبور الطين يصطاد الدودة ثم يبيض عليها بيضة واحدة ثم يضعها في العش ويمضى باحثاً عن حصاة حتى إذا وجدها حملها بين ذراعيه وأغلق بها باب العش.

وتفقس البيضة لتجد اليرقة الصغيرة طعامها جاهزاً بين يديها.

كيف أدرك الزنبور هذه الحاجة المسبقة فاحتاط لها؟!

والبعوضة التي تضع بيضها على سطح الماء، فتزود كل بيضة بكيسين من الهواء تطفو بهما على السطح.. هل تعرف قوانين أرشميدس.

والحشرة التي يسمونها في علم الحشرات "قاذفة القنابل" والتي تتمخطر أمام الحيوانات المفترسة دون خوف حتى إذا فتح أحدها فمه ليلتهما ضغطت على كيس في بطنها فامتزجت في لحظة إفرازات ثلاث غدد تحتوى على مادة الهيدروكينون وفوق أكسيد الهيدروجين وأنزيم خاص، ويؤدي اختلاط الثلاثة إلى تفاعل شديد وخروج غاز لاسع

كريه الرائحة، فيفر الحيوان المفترس رعباً..

هل أخذت هذه الحشرة دبلوم الكيمياء من كامبريدج..؟!

والحشرات التي تنصب الفخاخ من خيوط الحرير..

والحباحب التي تضيء بالليل لتجذب البعوض ثم تأكله.. وحشرات الماء التي تسبح في الماء بأذرع كالمجاديف وتطير في الهواء بأذرع مجنحة والحشرات التي تغني لتنادي على ذكورها..

لاشك أن هناك عقلاً كلياً خلق مخلوقاته وخطط لها وهو يعلم من الغيب ما لا تعلم.

إن الحديث ليطول ويحلو..

والموضوع يزداد غرابة كلما أوغلنا فيه..

***

النمل

من على ارتفاع شاهق يبدو كل الناس مثل بعض .. يبدون كالنمل .. سحنتهم واحدة .. و هيكلهم واحد .. مجرد نقط تندفع في اتجاهات متعددة .

و إذا صعدت إلى أعلى برج في القاهرة ثم نظرت إلى الناس تحت فإنك سوف تراهم مجرد نقط .. مجرد كرات تتدحرج على أديم الأرض ككرات البلياردو .. وستبدو عربات المرسيدس الفارهة كطوابير من الصرارصير اللامعة ..

إن الأمور تختلف كثيراً حينما ننظر إليها من بعيد .. إنها تتضاءل و تتشابه و تصبح ذات سحنة واحدة .. وتصبح تافهة مثيرة للدهشة و التساؤل ..

إنك تتعجب وأنت فوق في علوّك الشاهق تنظر إلى الصرصار الصغير المرسيدس .. و تسأل نفسك .. أهذا هو الشيء الذي كنت طول عمرك تحلم بأن تقتنيه

من أجل هذا الصرصار يحدث أحياناً أن يرتكب رجل عاقل جريمة ، فيسرق و يقتل ليجمع بضع جنيهات يشتري بها هذا الصرصار ؟! من أجل أن يكون وجيهاً أنيقاً؟..

و لكن لا يبدو أن هناك فارقاً بين الأناقة و البهدلة من هذا الإرتفاع الشاهق .. إن كل الثياب تبدو واحدة من فوق ..

أجمل النساء تبدو كأقبح النساء .. الوجوه الفاتنة و القبيحة تبدو من فوق كوجوه الدجاج .. لا فرق بين ملامح دجاجة وملامح دجاجة أخرى .. لا تبدو غمزة العين ولا هزة الحاجب و لا بسمة الشفتين .. و كل ما يبدو هما ثقبان مكان العينين وثقب مكان الفم .. و لا شيء غير هذا ..

كل مخلوق من هذه المخلوقات التي تهرول تحت .. له ثلاثة ثقوب في وجهه و منقار صغير هو أنفه .. وكل واحد يجري و يدفع الآخر أمامه .. و يدفعه آخر من خلفه .. و أنت تتساءل .. على إيه.. على إيه .. بيجري ليه الراجل ده .. مستعجل ليه .. عاوز إيه ؟

و الحكاية كلها تبدو لك من فوق حكاية مضحكة غير مفهومة .. و قد تنسى بعض الوقت أنك كنت منذ لحظة تهرول في الشارع مثل هؤلاء الناس و تجري و تدفع الناس أمامك و تصرخ في سائق التاكسي أن يسرع بك ..

هذا الحماس الذي كان يبدو لك و أنت تحت في الشارع تعيش في وهمك .. هذا الحماس الذي كان يبدو لك حينذاك معقولاً .. يبدو لك الآن من بعيد مضحكاً مثيراً للدهشة ..

و قد تدبّ خناقة بين اثنين تحت ويتجمّع الناس كما يتجمّع النمل حول ذرة تراب غريبة .. وتنظر أنت من فوق فتبدو لك الخناقة منظراً غريباً، ويبدو لك الموقف مشحوناً بحماس غير مفهوم.. بحماس طائش أبله ليست له دوافع طبيعية ..

لماذا يقتل رجل رجلاً آخر ويزاحمه في شبر صغير من الأرض يقف فيه مع أن الدنيا أمامه واسعة ..

و الدنيا تبدو لك من فوق واسعة .. واسعة جداً.. تبدو لك أوسع من أن يتقاتل اثنان على شبر صغير فيه ا..

إنك تكتشف سخافة الشبر .. وسخافة الناس .. وسخافة السرعة .. وسخافة الآلة..

إن هذا الشبر موضع التنافس و التقاتل يبدو لك تافهاً لا قيمة له ..

إنك تسأل نفسك لأول مرة .. لماذا كل هذا الجري ؟!

و تتفتح حواسك على آفاق رحبة تخرجك من سجن أنانيتك و صغار حياتك فتبدو لك اهتماماتك الصغيرة هيافة لا تستحق العناء ..

و هناك لحظات تستطيع أن تتحقق فيها من هذه الهيافة بدون أن تصعد على برج القاهرة و تنظر إلى الناس تحت ..

هناك لحظات نادرة تستطيع أن تخلع فيها نفسك من مشكلاتك التي تضيق عليك الخناق و تحصرك في رقعة ضيقة هي مصلحتك .. و تنظر إلى روحك كأنك تنظر إليها من فوق دون أن تصعد إلى فوق فعلاً .. وتنظر متأملا متعجباً .. وتتساءل مندهشاً ..

و لماذا كان كل هذا الاندفاع .. لماذا كان هذا الحماس والتهوّر على لا شيء ..

و في هذه اللحظات الخاطفة تفيق إلى نفسك .. و تتجلى عليك رؤية واسعة لحياتك و تتسع أمامك شاشة واقعك فتصبح شاشة بانورامية .. سينما سكوب .. و تسترد قدرتك على الحكم الدقيق العاقل .. تسترد قدرتك على الإمساك بفراملك والسيطرة على حياتك لأنك ترى ظروفك كلها دفعة واحدة و ترى معها ظروف غيرك و ظروف الدنيا فتتضائل مشكلتك و تصبح تافهة ..

و أنا عيبي .. وربما ميزتي .. لست أدري بالضبط .. أني اكتشفت هذه الحكاية من زمان وجربتها وتلذذت بها فقررت أن أقضي أغلب حياتي فوق .. في هذا البرج الذي طار من عقلي .. أتأمل نفسي و أنا ألعب تحت الأرض .. و أفهم نفسي أكثر .. و أتعقل حياتي أكثر ..

و كانت النتيجة أني نسيت اللعب.. و تحولت إلى متفرج مزمن .. جالس طول الوقت فوق .. في منصة الحكم .. ونسيت أن الصعود إلى برج المراقبة هذا لا يكون إلا لحظات خاطفة .. نصلح فيها هندامنا .. و نصلح نفوسنا .. ثم ننزل بعدها لنستأنف اللعب ..

و أدمنت على الجلوس فوق .. و النظر من فوق حيث يبدو كل شيء صغيراً و جاء العيد ....

و سمعت صوت البمب تحت نافذتي .. و شعرت أن كل واحد يلعب و يجري و يكركر بالضحك إلا أنا .. جالس وحدي كالغراب في برج عقلي الذي طار ..

و شعرت بالثورة على هذه الوظيفة اللعينة التي اخترتها ..

هذه الوظيفة التي تحرمني من اللعب و تحرمني من بهجة الحماقة و لذة التهوّر

و قررت أن أتهور و ألعب و أجري .. و أستمتع بالعيد مثل العيال ..

و ملأت جيبي بالبمب .. و سرت أطرقعه باليمين و بالشمال ..

ثم ذهبت إلى روف جاردن لأشرب كوباً من البيرة ، مثل أي شاب أحمق ..

و كان الروف جاردن في الدور السادس عشر من عمارة عالية.. كناطحة سحاب ..

ولذ لي أن أنظر من فوق .. إلى الدنيا تحت .. فماذا كانت النتيجة ..

كانت النتيجة أني رأيت الناس تحت يبدون كالنمل .. سحنتهم واحدة .. وهياكلهم واحدة .. مجرد نقط تتدافع في اتجاهات متعدة ..

و نسيت كوب البيرة و نسيت اللذة الحمقاء التي جئت من أجلها .. و نسيت العيد .. و نسيت اللعب ..

و بدت لي كل هذه الأشياء صغيرة تافهة

***

العنكبوت

ليس كما اعتقدت إننا سنناقش أمر علمي عن العنكبوت ولكنه مقال جميل للدكتور مصطفى محمود يتحدث فيه عن الفتن وكيف ضرب المثل بالعنكبوت وبيته فى القران لتوضيح شر الفتن وخطورتها ..

قوم أُنثى العنكبوت بقتل الذكر بعد التلقيح و تلقيه خارج البيت..

وبعد أن يكبر الأولاد يقومون بقتل الأم و إلقائها خارج المنزل..

بيت عجيب من أسوأ البيوت على الإطلاق.

لقد وصفها القرآن بآية واحدة..

﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(العنكبوت:٤١).

سبحان الله !!!

لقد كان الناس يعلمون مدى الوهن في البيت الحسي للعنكبوت لكنهم لم يدركوا الوهن المعنوي إلا في هذا العصر...!! وبالتالى جاءت الآية: لو كانوا يعلمون !!

ومع ذلك يسمي الله تعالى سورة باسم هذه الحشرة السيئة الصيت ويتكلم عنها في آية مع أنّ السورة تتحدث من أولها لآخرها عن الفتن؟

البداية كانت ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت:٢) و﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ (العنكبوت:١٠).

قد يتبادر للذهن ما علاقة الفتن بالعنكبوت؟

الجواب :إنّ تداخل الفتن يشبه خيوط العنكبوت..

فالفتن متشابكة و متداخلة فلا يستطيع المرء أن يميز بينها و هي كثيرة و معقدة و

لكنها هشة و ضعيفة إذا استعنا بالله ..

"اللهم جنبنا الفتن ما ظهر منها و ما بطن"

... سئل أحد العلماء

ما الذي أوصل حال المسلمين إلى هذه الدرجة من الذل والهوان وتكالب الأعداء؟

فرد : عندما فضلنا الثمانية على الثلاثة

فسئل : ما هي الثمانية ؟ وما هي الثلاثة؟

فأجاب: أقرؤها في قوله تعالى

((قل إن كان

١. آباؤكم

٢. وأبنائكم

٣. وإخوانكم

٤. وأزواجكم

٥. وعشيرتكم

٦. وأموال إقترفتموها

٧. وتجارة تخشون كسادها

٨. ومساكن ترضونها

أحب إليكم من

١. الله ،

٢. ورسوله،

٣. وجهاد في سبيله

فتربصوا حتى يأتي الله بأمره

والله لا يهدي القوم الفاسقين))

القرآن الكريم ومخاطبة النفس البشرية

إن المتتبع لطرائق القرآن في مخاطبة النفس البشرية، وكذلك طرائق الجدال مع المعاندين سيلاحظ أن تركيز الخطاب هو على استثارة الفطرة وتذكيرها بخالقها، لأنها مهيأة لذلك، ومهيأة لأن تهتدي إلى أصول الإسلام، وكذلك يتوجه الخطاب إلى العقول التي لا يليق بها أن تكون بعيدة عن البديهيات، ولا تكون بعيدة عما يؤكده القرآن من حقائق.

الفطرة السليمة لا تصاب بالدهشة عندما تسمع ما يريده القرآن، وما يقرره من التوحيد، ومن نشر الفضائل وتقبيح الرذائل، وإدانة الفساد والظلم، فقد زودت هذه الفطرة ببصيرة أخلاقية: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ (القيامة:١٤/ ١٥)، هذه الفطرة السليمة، والعقول المستعدة للتفكر هي قوى موجودة، ولكنها بحاجة إلى الوحي كي يوجهها إلى الصواب دائما، وإلى الطريق الأعدل، وكي يوقظها من سباتها ويحفزها للعمل، ولذلك يدعو المسلم في كل صلاة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة:٦)، ولكن إذا اختفت هذه القوى وهذه الأسس، أو أصابها الغشاوة على أعينها، فإن القرآن لا يؤثر في أصحاب القلوب الغلف والآذان الصم، بل إن أصحاب هذه القلوب إذا سمعوا القرآن ازدادوا بعدا وعنادا، فالبناء لا يعلو إذا لم توجد اللبنات المرصوصة، وقد تفقد الأرض التي يشيد عليها البناء، فالقلوب أوعية متفاوتة جدا، ورؤيتها للحقائق والاستفادة منها متفاوتة جدا أيضا.

الفطرة السليمة لا تشك في وجود الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (إبراهيم:١٠)، والقرآن الكريم يحث الإنسان ليستعمل عقله، ويرى الأمور بشكلها الصحيح، ويفكر في الحقائق المعروضة، قال تعالى مبينا ضعف عقول المشركين: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان:٣)، وقال تعالى داعيا الإنسان إلى التفكر في هذه الظاهرة الواضحة، التي لا مفر منها: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ

﴿ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يس:٦٨)، "ومن طرائق القرآن أن يبدأ بالحجج المنطقية، والبرهان العقلي، ثم يتدرج إلى الإنذار والتوبيخ، وبيان فساد ما عليه الكفار وأهل الباطل، قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ (مريم:٤٢/ ٤٥) (١).

وقد أوقف القرآن المشركين على اضطراب عقائدهم وتناقض آراءهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ (النحل:٢٠/ ٢١)، وقال موضحا تناقض أهل الكتاب، ومغلّطاً لهم طريقة تفكيرهم في ادعاءاتهم غير المعقولة: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ (المائدة:١٨).

ومن أنواع المحاجة والجدال بالحق، أن يقال للإنسان: أين المذهب وأين المفر، فإنك أيها الإنسان محاط بسنن الله الكونية، وما خلق في السماوات والأرض، هل تستطيع أيها الإنسان أن تخرج عن هذه السنن؟ وهل تستغني عن فضل الله وتسخيره كل شيء لك؟ أي أن القرآن يحيل البشر للنظر في الأمر والواقع. قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ (يس:٤١)، ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ (يس:٤٣)، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ (الحج:١٥)، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا.. ﴾ (المائدة:١٧).

ويدحض القرآن الكلام المتناقض الذي ليس عليه أي دليل، والواقع يدفعه

ويكذبه، بل هو من المستحيلات كاتهام قريش، وكذلك بعض المستشرقين اليوم للنبي صلى الله عليه وسلم، أنه تعلم من أناس من أهل الكتاب كانوا في مكة، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٠٥)، أي قرأت على غيرك وتعلمت منهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣)، فإذا كان العرب الأقحاح وقفوا حائرين أمام فصاحة القرآن وإعجازه البياني، وقد تحدّاهم أن يأتوا بمثله أو بسورة مثله، هذا وهم الفصحاء البلغاء، الذين يعرفون مكامن البلاغة في القول، فكيف يتعلم الرسول ﷺ من عبدين من الروم كانا في مكة؟! هذا كلام متهافت لا يقوله إلا معاند صاحب هوى.

وإذا كانت هذه البراهين والحجج العقلية لا تنفع مع بعض الناس، فإن القرآن الكريم يقول لهم: انتظروا المستقبل لتروا بأعينكم النتائج والمصير، وستعلمون عندئذ الحقائق: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ (طه: ١٣٥)، ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: ٦٦/ ٦٧)، وقال تعالى حاكيا قول الكفار وراداً عليهم: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ (ص: ٨)، "أي لو ذاقوه لتحققوا أن هذه الرسالة حق، أي هم لجهالتهم لا يستعلمون النظر ولا يستفيدون منه، ولكن يتضح لهم الحق عند مباشرة العذاب" (٢).

وقد يستعمل القرآن أسلوب الرجوع إلى التاريخ، ومعرفة مصير الأمم السابقة، ليكون ذلك مثار التأمل والعبرة، وأن السنن واحدة لا تتبدل، فما حصل سابقا يمكن أن يحصل لاحقا: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ (الأنعام: ٦).

***

خصائص النفس البشرية

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الإنسانُ المخلوقُ المكرَّمُ ينطوي على نفسٍ هي ذاتُه، هي المكلَّفةُ، والمحاسَبَةُ، وهي التي تؤمنُ أو تكفرُ، هي التي تشكرُ وتصبرُ، وتسمو وتنحطُّ، وتخلدُ في جنةٍ يدوم نعيمُها، أو في نارٍ لا ينفدُ عذابُها، هذه النفسُ الإنسانيّةُ لا تموتُ، ولكنها تذوقُ الموتَ، وفرقٌ كبيرٌ بين أنْ تموتَ، وأنْ تذوقَ الموتَ، قال تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ (آل عمران:١٨٥).

هذه النفسُ البشريّةُ قد يكونُ خطُّها البيانيُّ صاعداً صعوداً حادًّا، وعند الموتِ تسقطُ سقوطاً مريعاً إلى أسفلِ السافلين، أمّا نفسُ المؤمنِ ففي حركةٍ صاعدةٍ صعوداً مستمرًّا، وما الموتُ إلا نقطةٌ على هذا الخطِّ، والصعودُ مستمرٌّ، هذا الإنسانُ فيه جسدٌ ونفسٌ، والموتُ انفصالُ هذه النفسِ الخالدةِ عن الوعاءِ الماديِّ الذي هو الجسدُ.

وهناك عنصرٌ ثالثٌ، هو الروحُ، أي القوّةُ المحرِّكةُ، بل إنّ الروحَ إذا انقطعت عن الإنسانِ أصبحَ جثّةً هامدةً، أين رؤيةُ العينِ ؟ أين عملُ الكبدِ ؟ أين أجهزتُه ؟ كلّه تعطّلَ، وأصبحَ جثّةً هامدةً ؟ لكنّ البحثَ في الروحِ عديمُ الجدوى، لقولِه سبحانه: ﴿**وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ (الإسراء:٨٥).

فالإنسانُ فيه نفسٌ هي ذاتُه، وفيه جسمٌ هو وعاؤه، وفيه روحٌ هي قوّتُه المحرِّكةُ، لو نظرنا إلى نفسِه لوجَدْنا أنّ لها خصائصَ وسماتٍ وقوانينَ، والعالَمُ كلُّه اليومَ يهتمُّ بالجسمِ لا بالنفسِ، يسعى لرفاهيةِ الجسمِ، وقد غفلَ عن النفسِ،

وقد صدقَ مَن قال:

يا خادمَ الجسمِ كم تشقى في خدمتِه ... أتطلبُ الربحَ فيما فيه خسرانُ

انهض للنفس واستكمِلْ فضائلَها ... فإنك بالروحِ لا بالجسمِ إنسانُ

في الإنسانِ نفسٌ لا يملؤها إلا معرفةُ الله عز وجل، لا تملؤها إلا طاعتُه، ولا يملؤها إلا أن تكونَ قريرةَ العينِ بربّها، هذه الحاجةُ إلى الإيمانِ بالله وطاعته، هذه حاجةٌ أصيلةٌ، وقد وردت خصائصُ النفسِ الإنسانيةِ في بعضِ الآياتِ القرآنيةِ .

الخصيصةُ الأولى: الإنسانُ هلوعٌ:

اللهُ جل جلاله لحكمةٍ بالغةٍ خلَقَ هذا الإنسانَ هلوعاً: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ⑲ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ⑳ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ㉑ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ (المعارج:١٩/٢٢).

فمن خصائصِ الإنسانِ أنه شديدُ الهلعِ إذا لاح له شبحُ مصيبةٍ ! وهذا من نقاطِ الضعفِ التي هي في أصلِ خَلقهِ، ولكنها لصالحِه، أوضّحُ هذا بمثلٍ:

لو أنّ شركةَ صنَّعتْ جهازاً غالياً جداً بالغَ التعقيدِ لاضطرّتْ أنْ تضعَ قطعةَ ضعيفةً جداً في طريقِ التيارِ اسمُها (الفيوز)، هذه القطعةُ رخيصةٌ، لكنها نقطةُ ضعفٍ مدروسةٌ في أصلِ هذا الجهازِ، فإذا جاء التيارُ الكهربائيُّ عالي المستوى ذابتْ هذه القطعةُ، وانقطع التيارُ، فلم يتلف الجهازُ، فهذه نقاطُ الضعفِ التي هي في أصلِ خَلْقِ الإنسانِ إنما هي لصالحِه .

كيف يتوبُ إلى الله إنْ لم يكن هلوعاً ؟ كيف يعودُ إليه؟ وكيف يصطلحُ مع الله؟ كيف يؤدِّبه الله عز وجل؟ وكيف يسوقُه إلى بابِه، وبابِ طاعته؟ كيف يحملُه على التوبةِ إنْ لم يكن هلوعاً ؟

لقد ثبّت الله عز وجل مليارات الأشياءِ في الحياةِ، فالقوانينُ كلُّها ثابتةٌ، قوانينُ المعادنِ وخصائصُها، وخصائصُ البذورِ، حركةُ الكواكبِ ثابتةٌ، بل إنّ هذه الساعةَ المشهورةُ، ساعةُ (بيك بن) ما الذي يضبطها ؟ حركةُ نجمٍ ! فالله سبحانه وتعالى ثبّت أشياءَ لا تعد ولا تحصى، لكنه حرّك الصحةَ والرزقَ، الرزقُ ليس ثابتاً، قد تأتي أمطارٌ غزيرةٌ، وأحياناً تأتي نسبٌ قليلةٌ جداً، فالرزقُ متبدّلٌ، والصحّةُ متبدّلةٌ، ولحكمةٍ أرادها اللهُ عز

وجل فإنّ تغيُّرَ الصحةِ والرزقِ يعدُّ أحدَ الوسائلِ الفعّالةِ في تربيةِ الإنسانِ، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ (المعارج:١٩/٢٢).

هذا الذي اتّصلَ بالله عز وجل نجا من هذا الضعفِ الخُلقيّ .

شيءٌ آخرُ، هو أنّ خصائصَ النفسِ حياديّةٌ، الإنسانُ يحبّ أنْ يتفوّقَ، فإذا استغلّ هذه الخصيصةَ ليتنافسَ مع أخيه الإنسانِ في عملِ الآخرةِ يرقى، وإذا استغلّ هذه الخصيصةَ ليتنافسَ مع أخيه الإنسانِ على حطامِ الدنيا كان الشقاءُ .

الخصيصةُ الثانيةُ: الإنسانُ مَنُوعٌ:

إنّ الإنسانَ حريصٌ على ما في يديه، ننطلقُ من هنا إلى فكرةٍ دقيقةٍ، هي أن الطبعَ يتناقضُ مع التكليفِ، وهذا التناقضُ هو ثمنُ الجنةِ .

إنّ طبعَ الإنسانِ يدعوه لأخذِ المالِ، والتكليفُ يأمرُه أن ينفقَ المالَ، طبعُ الإنسانِ يقتضي أن يملأَ عينيه من محارمِ النساءِ من دونِ قيدٍ أو شرطٍ، والتكليفُ يقتضي منه أنْ يغضّ البصرَ عمّن لا تحلُ له، طبعُ الإنسانِ يقتضي أن ينامَ وقت صلاةِ الفجرِ، والتكليفُ يأمرُه أن يستيقظَ، طبعُ الإنسانِ يقتضي أن يتحدّثَ في فضائحِ الآخرين، ويمتّعَ الحاضرين، لكن التكليفَ يقتضي أن يصمتَ، فلذلك من تناقضِ الطبعِ مع التكليفِ يكون ثمنُ الجنّةِ .

الخصيصةُ الثالثةُ: الإنسانُ عَجولُ:

من خصائصِ النفسِ البشريّةِ خصيصةٌ وردتْ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾(الإسراء:١١).

يصفُ اللهُ عز وجل في سورةِ البقرةِ المؤمنين بصفةٍ تَلفتُ النظرَ، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾(البقرة:١/٣).

هناك شهودٌ، وهناك غيبٌ، عالَمُ الشهادةِ، وعالَمُ الغيبِ، في عالَمِ الشهادةِ الشهواتُ

مستعرةٌ، والفتنُ ثائرةٌ، والدنيا خضرةٌ نضرةٌ، أما عالَمَ الغيبِ، عالَمُ ما بعد الموتِ فهناك جنةٌ يدوم نعيمُها، و نارٌ لا ينفدُ عذابُها، لكنّ الآخرةَ خبرٌ، والدنيا محسوسةٌ .

أمامك بيتٌ جميلٌ، ومركبةٌ فارهةٌ، وطعامٌ طيّبٌ، وامرأةٌ جميلةٌ، هذه كلّها محسوسةٌ أمامك، إلاّ أنّ الجنةَ والنارَ خبران في القرآنِ، وفي الكتبِ السماويةِ الأخرى، فلو أن إنساناً يركبُ دراجةً، ووصلَ إلى طريقين ؛ طريقٍ هابطٍ، ـــ

وطريقٍ صاعدٍ، الطريقُ الهابطُ معبّدٌ تحفُّه الأشجارُ والأزهارُ، وراكبُ الدارجةِ يرتاحُ في الطريقِ الهابطِ قطعاً .

كلُّ معطياتِ البيئةِ والواقعيةِ وخصائصِه الجسميّةِ تدعوه لأنْ يسلكَ الطريقَ الهابطَ، وكلُّ معطياتِ البيئةِ، وكلُّ خصائصِه الجسميّةِ، وكلُّ رغباته تصرِفُه عنِ الطريقِ الصاعدِ، لأنّ فيه حُفراً، وأكماتٍ، وغباراً، وجهداً عالِيا جداً، فالإنسانُ إذّا تعاملَ مع الواقعِ فقط، ومع خصائصِ جسمِه فقط، ومع معطياتِ البيئةِ فقط لابد من أنْ يسلكَ الطريقَ الهابطَ، لكنْ لو كُتِبَتْ على لوحةٍ عند مفترقِ الطريقين: " هذا الطريقُ الهابطُ ينتهي بحفرةٍ مالها من قرارٍ، فيها وحوشٌ كاسرةٌ، وأنّ هذا الطريقَ الصاعدَ ينتهي بقصرٍ منيفٍ هو لَمِن دخلَه، ألا ينبغي أنْ يتّخذَ راكبُ الدراجةِ قراراً معاكساً ؟

الحقيقةُ أنّ هناك واقعاً محسوساً، وشهواتٍ مستعرةً، منها دنيا خضرةٌ نضرةٌ، وامرأةٌ جميلةٌ، وبيتٌ جميلٌ، ومنصبٌ رفيعٌ، وأشياءُ كثيرةٌ، لكنْ حينما تقرأُ البيانَ الإلهيَّ لابد مِن أن تتّخذَ قراراً معاكساً، وهذه هي القصّةُ كلُّها، هناك دنيا محدودةٌ، وآخرةٌ لا تنتهي، ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (الضحى:٤/ ٥)

وقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ (الإنسان:٢٧)

آيات كثيرة تبين أن الحقيقة هي الآخرة، وأن السعادة الحقيقية هي الآخرة، وأن أكبر خسارة يخسرها الإنسان حينما يخسر الآخرة، ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(الشورى:٤٥).

فالدنيا محسوسةٌ، والآخرة خبرٌ، لأنّ الإنسانَ فُطِرَ على أنه عجولٌ يريدُ الأشياءَ المحسوسةَ التي أمامه، يريدُ ما هو قريبٌ منه، وينصرفُ عن الشيءِ البعيدِ، لو أنه اختارَ الأهدافَ البعيدةَ لاختارَ الآخرةَ، ورضوانَ الله عز وجل .

ما معنى أنّ الإنسانَ مخيّرٌ ؟ لو أنّ الإنسانَ لمجرّدِ أن يعصيَ اللهَ يعاقبُه الله لم يكن مخيَّراً، يمكنُ أنْ يعصيَه إلى أمدٍ طويلٍ، ولا يحدثُ شيءٌ ! جسمُه في أتمّ صحّةٍ، قلبُه ينبضُ نبضاً طبيعياً، وضغطُه مناسبٌ، ويمكن أنْ يطيعَه إلى أمدٍ بعيدٍ ولا يرى شيئاً استثنائياً ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾(إبراهيم:٤٢).

الدنيا حولَ المؤمنِ محسوسةٌ، ترقصُ خضرةً نضرةً محبَّبةً، تتناغمُ مع شهواتِه ونزعاتِه وخصائصِ جسمِه، والآخرةُ خبرٌ في الكتبِ السماويةِ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِّ: ((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ))[مسلم (٢٨٢٢)، الترمذي (٢٥٥٩)، وأحمد (٧٥٢١) من رواية أبي هريرة].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ((خَرَجَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَقُولُ بِيَدِهِ هَكَذَا - فَأَوْمَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِيَدِهِ إِلَى الْأَرْضِ - مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللهُّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثَلَاثًا، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))[مسند الإمام أحمد (٣٠١٧)]

وفي المقابلِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِّ : ((قَالَ اللهُّ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))[البخاري (٣٠٧٢)، مسلم (٢٨٢٤)، الترمذي (٣١٩٧)].

خُلِقَ الإنسانُ عجولاً، وهي نقطةُ ضَعفٍ فيه .

إذا عاشَ الإنسانُ الماضيَ فقط، وأهملَ حاضرَه فهو غبيٌّ، وإذا عاشَ حاضرَه كانت حياتُه ردودَ أفعالٍ متأخرةً، لكنّ الموفّقَ يعيشُ المستقبلَ، وأكبرُ حدثٍ في المستقبلِ مغادرةُ

الدنيا، ماذا بعدَ الدنيا ؟

الخصيصةُ الرابعةُ في الإنسانِ الضعفُ:

إنّ اللهَ خَلَقه ضعيفاً، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النساء:٢٨).

هذا من نقاطِ ضعفِ الإنسانِ، فلو أنّ الله خَلَقَ الإنسانَ قوياً لاستغنى بقوّتِه فشقيَ باستغنائِه، ولكنْ لأنّ الإنسانَ خُلِقَ ضعيفاً فإنه يفتقرُ في ضعفِه، فيسعدُ بافتقارِه .

فالإنسانُ حينما يستغني عن الله يميلُ إلى المعصيةِ، والدليلُ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (العلق:٦/٧).

والإنسانُ يتوهّمُ أنه مستغنٍ عن الله، لكنه في قبْضتِه، والحقيقةُ أنّ في القرآنِ ملمحاً رائعاً، هو أنّ كلمة (العبد) تُجمَعُ على عبيدٍ، وعلى عبادٍ، والفرقُ بينهما دقيقٌ، عبدُ القهرِ يُجمَعُ على عبيدٍ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت:٤٦).

***

الفهـــرس

***